الماتادور

عبد المجيد طعام

عبد المجيد طعام

الماتادور

قصص

ZIRI LI TEBAAA
impression-publication-publicité

الكتاب : الماتادور

المؤلف : عبد المجيد طعام

الناشر: زيري للطباعة والنشر والإشهار

السلسلة : إبداع

الإيداع القانوني : 2019MO054

ردمك :978-9920-37-039-4

العنوان : حي بودير شارع عبد الخالق الطوريس رقم 1 وجدة

الهاتف : 0672873885 / 0671393250

البريد الإلكتروني : zirilitebaa@gmail.com

الموقع : www.zirilitebaa.com

تصميم الغلاف : عبد المجيد طعام

إلى كل الذين يبعثون فينا أمل وطن أفضل

الماتادور

دخل الثور حلبة الكوريدا قويا يقظا ... يجري هنا و هناك يثير النقع بحوافره و يرج الأرض بقرنيه...في ركن من الحلبة وقف الماتادور خلف حاجز خشبي يراقب حركة الثور ، يزن قوته و يحصي أنفاسه ثم ولج الحلبة و سار يمشي حذرا إلى أن اقترب من قرنيه يحفزهما على النطح بخرقة حمراء كانت تتراقص بمهارة بين يديه يمنة و يسرى.

لم يكن الثور يقتصد جهدا ،هاج و رمى زبدا من فمه ...حاول عبثا أن ينال من الماتادور ..كان يجتهد في النطح والمصارعة لكن مع كل ضربة كان يصطدم بفراغ قاسي لأن الماتادور كان ذكيا ، حريصا على كبريائه متأكدا من تحقيق الانتصار ..كان يعرف كيف يقتصد جهده ، كان يجيد المراوغة و يدفع الثور ليستهلك كل طاقته....في لحظة انتشاء اقترب الماتادور من قرني الثور الجريح لمسهما و قال له :" أيها الثور إنك تسير نحو نهايتك ...سأجعل من موتك متعة للمتفرجين ..هنا على حلبة الكوريدا.."

أصيب الثور في كبريائه فأنزل قرنيه حتى لامسا التراب و ضرب الأرض برجليه مرة فمرة ثم مرات ..عزم الثور على الانتقام لنفسه من الماتادور المتعجرف ... أراد أن يرديه جثة هامدة بضربة قوية لكنه كما كل مرة كان يتجه عزمه الهائج الجريح نحو الفراغ يلامس الخرقة الحمراء المتراقصة أمام عينيه الشاردتين المتعبتين .

استسلم الثور لتعبه و يأسه و إحباطه ، لم يعد يجد في نفسه أي رغبة لمواصلة الصراع ، حينها نظر إليه الماتادور نظرة استصغار و أخرج سيفا مندسا تحت خرقته الحمراء ،غرسه في ظهره المشخن بالجراح ... سقط الثور فهوى كتلة لحم على الأرض و قد أحاطت به دماؤه تتربص موته الوشيك....

أنا و الثور القتيل سيان كلانا وقعنا ضحية ماتادور مجنون بكوريدا الحياة.

التحقيق

إلى ضحايا " خنشة فارينا"..

يتموضع القايد سي عبد القادر في آخر السلسلة الطويلة لمسؤولين يسيرون البلاد و العباد من مكاتب مكيفة و بهواتف فقدت الكثير من ذكائها .. كان على السي عبد القادر أن يجيب على سؤالين في أقرب الآجال ..المسؤولون المركزيون يريدون أن يعرفوا :" ماذا وقع ؟ ومن هو المسؤول عن الكارثة ؟"

المهمة لم تكن سهلة خاصة و أنها مرتبطة بقضية رأي عام قد تؤدي إلى ما لا يحمد عقباه لهذا وجد سي عبد القادر نفسه مجبرا على التحقيق مع حوالي ألفي مواطن و مواطنة فهجر بيته و سكن بمكتبه في القيادة وطلب من أعوانه أن يسهروا على تنظيم الجمهور الغفير في طابور طويل تجاوز خارج القرية الفقيرة و أن يتجنبوا حدوث كارثة تدافع

أخرى قال لهم بلهجة حادة :" يكفي مادارت فينا الفارينا !! ما نبغيش يتحول التحقيق إلى كارثة !! "في الصباح الباكر بدأ يستقبل المواطنين وكان يوجه لكل واحد منهم نفس الأسئلة: " ماذا حدث بالضبط ؟ أين كنت ؟ لماذا لم تمت ؟ " وكان هو أيضا يتلقى نفس الأجوبة :" أسيدي القايد ...لي كان مورايا هو لي دفعني !! " استمر السي عبد القادر يطرح نفس الأسئلة و يتلقى نفس الأجوبة

لمدة ثلاثة أيام بلياليها إلى أن أدخلوا عليه أخر مواطن في الطابور وقد بدا عليه التوتر و القلق فقال السيد القائد في نفسه :" ربما يكون هذا هو المجرم الذي تسبب في الكارثة !!" نظر إليه بعينين يتدفق منهما غضب جارف و سأله : " قل لي أشنو سميتك واشنو تتخدم ؟ "

" أنا بوشتا أو صافي ...ما عندي خدمة " أجاب الرجل.

"قل لي و ما تخافش اشنو وقع ؟ " سأله القائد

بعد صمت قصير سرد بوشتا على القائد كل ما حدث و كيف أنه كان

بعد صمت قصير سرد بوشتا على القائد كل ما حدث و كيف أنه كان

يقف بجانب حمار جن بسبب ضربات شمس ملتهبة ولسعة حشرة متوحشة فرفع رجله الخلفية و ضربه على بطنه فسقط على الجمع وهكذا تواتر التساقط وأصيب الناس بالهلع فزاد الدفع و التدافع وختم بوشتا سرده قائلا :" و الله أسيدي القايد هاذ شي للي كاين ... أنا ردسني الحمار ... راه حمار عمي رابح هو السبب..و راه عندي الشهود..و الله !! " انفرجت أسارير القايد و حمل على الفور الهاتف و كلم مسؤوليه حيث بشرهم بأنه تمكن من معرفة المسؤول المباشر للفاجعة و سيكتب على الفور تقريرا مفصلا في الموضوع .

في اليوم الموالي تصدرت الصفحات الأولى لكل الجرائد صورة حمار عمي رابح كتب فوقها بالبنط الغليظ :حمار عمي رابح يتسبب في مقتل خمس عشرة امرأة.

الحاج الكلب و الاخرون

أحيانا نحتاج إلى عنف اللغة كي نعرف و نفهم ...

إلى كل نساء المغرب المناضلات من أجل شيء من الخبز و كثير من الكرامة

جلس الحاج بولحية و السمسار الحاج " ألبيرو " بمقهى شعبي يسمى" علاش لا " و طلبا من النادل أن يحضر لهما كأسين طويلين من الشاي "المنعنع" رشفا رشفتين و تلذذا مذاقه المنعش ثم استرسلا في حديث عام إلى أن قال الحاج بولحية :" أنا بحاجة إلى عشر- حمالات شديدات قويات يخرجن لي السلعة من باب مليلية " رد عليه الحاج البيرو :" الخير موجود .." .

السمسار أو الحاج " ألبيرو" هو رجل العمليات الصعبة معروف بين المهربين له صداقات نافذة بين حراس الحدود الإسبان يتكلم الإسبانية بطلاقة و لا يجد أي حرج في نعت النساء الحمالات بالبغلات كغيره من حراس الحدود كما لا يجد أي حرج عندما يناديه أصدقاؤه الإسبان و المغاربة " ألبيرو" بينما كان يشتاط غضبا عندما يناديه أحدهم "الحاج الكلب"

أظهر"إلبيرو" كامل استعداده لتوفير العدد المطلوب من الحمالات بل طمأن الحاج بولحية بتأمين البضاعة إلى أن تدخل التخوم المغربية ولكن " كل خدمة بثمنها " قال السمسار ثم أضاف :" يلزمك أن تدفع ثلاثمائة و خمسين درهما عن كل" بغلة " أظهر بولحية استغرابا غير معهود ما دفع بالسمسار إلى

الاستزادة في الكلام و التفصيل في الشرح فقال :" مئة درهم للحمالة الواحدة و مئة درهم للرجال الذين سيسهرون على تأمين البضاعة حتى تصل إلى التراب المغربي أما الباقي فهو حلال علي ." و في محاولة أخيرة لإقناعه أضاف :" كل حمالة تحمل حمولة شاحنة متوسطة الحجم ...إنه ثمن جد مناسب خاصة وأن بضاعتك ستصل آمنة إلى المكان المتفق عليه ... توكل على الله" قبل آذان الفجر جمع "الحاج الكلب" الحمالات و اتجه بهن على متن سيارة " بيك آب "نحو الشريط الحدودي ..بالجانب الاسباني كانت البضاعة جاهزة معبأة في أكياس كبيرة جدا فانهمك الرجال بوضعها على ظهور الحمالات يحكمون شدها بحبال متينة ....مباشرة بعد آذان الفجر بقليل انطلق جمع غفير من الحمالات في تسابق محموم نحو الشريط الحدودي الفاصل بين مليلية و الناظور بينما كان حراس الحدود الإسبان يتحرشون بهن و يدفعونهن و هم يصيحون في تضاحك هستيري: بغلات..لم تكن "باب مليلية "قادرة على استيعاب ذلك العدد الكبير من الحمالات و كان الحاج بولحية يتتبع مآل بضاعته و يراقب أرض المحشر من بعيد حيث اشتد التدافع و الصياح والصلاة على النبي و البكاء و العويل و العرق و التعب و الألم والجوع والفقر عندما اقتربت البتول من تجاوز الشريط الحدودي شعرت بالغثيان و الدوار لم تستطع أن تصمد تحت ثقل الأكياس وهي الحامل في شهرها الخامس فخرت ساقطة بحمولتها و جنينها على الشريط الحدودي اقترب منها رجال "الحاج

الكلب" فكوا حبالها ... سارعوا لسحب البضاعة المهربة من تحت جسدها و استقدموا حمالة أخرى وضعوا على ظهرها كل الحمولة و انطلقوا بها نحو بر الأمان و تركوا البتول ملقاة على الأرض ...جثة هامدة ..تحسس حارس حدود اسباني جسدها برجله و بمساعدة صديقه دفعاها بأرجلهما نحو الجانب المغربي ثم صدرت عنهما ضحكة احتقار و واصلا ممارسة عنفا مضاعفا على النساء... على بعد بضعة كيلومترات من الحدود جلس ثلاثة أطفال على عتبة بيت صغير ينتظرون عودة أمهم من العمل لتحضر لهم وجبة عشاء من شاي رخيص و سكر و خبز أسود ...لكن البتول لم تعد .. ماتت قتلها الفقر والتهميش و بولحية و الحاج الكلب و كل حراس الحدود مع سبق الإصرار والترصد.

أبي وكارل ماركس والآخرون

كنت اتخذ "كراج" المنزل غرفة متعددة الاستعمالات ... كان "الكراج " يحتوي على مكتب وكرسي و"سداري" وخزانة من الآجر الأحمر اصطفت على رفوفها مجموعة من الكتب المتنوعة منها ما يتصل بتخصصي في دراسة اللغة العربية وآدابها ومنها ما يحيل على السياسة وعلم النفس والاجتماع كما كانت توجد برفوفها مجموعة من الروايات العربية والفرنسية...كان "الكراج" مركز العالم الذي حاولت أن أرسم معالمه أنا وأصدقائي في مخيلاتنا بأقلام تتجاذبها ألوان ثورة حالمة ونقاش صحبة قنينات نبيذ أحمر نحتسي كؤوسا منها دون أن تثنيني رعشة مرارتها على طلب المزيد وكلما زادت الرعشة ارتفعت حدة نقاشنا.. كنا نملك الحلول لكل معضلات العالم.

كان "الكراج" مصبوغا بلون وردي وكنت أعلق على جدرانه صور لينين وكارل ماركس وشي غيفارا لم تكن تستهوينا في تلك الفترة صور غيرها كما لم يكن يستهوينا فكر غير ما فكر فيه أصحاب تلك الصور وكان والدي رحمه الله يستغل غيابي ليطل أحيانا على "الكراج" ليس تجسسا و إنما ليطمئن على أن المكان لازال يلائم احتياجاتي رغم أنني لم أكن أتخذ منه غرفة نومي كان فقط مكانا للدراسة والتحضير للامتحانات ولقاء الأصدقاء والنقاش إلى جانب السهر واللهو كما كان لي فيه مآرب أخرى.

في يوم ماطر وأنا أنتظر قدوم الأصدقاء استأذن أبي الدخول علي فسألني عن أحوالي الدراسية وهو يتجول بعينيه عبر الجدران الوردي يحدق في هذه الصورة ثم تلك إلى أن

عزم على اقتحام عالمي الخاص وقال لي :" من هم أصحاب هذه الصور ؟"أجبته :" إنها صورة كارل ماركس وصورة لينين و صورة تشي جيفارا " حاول أبي أن يخفي قلقه وتظاهر بعدم اهتمامه بأصحاب الصور ثم سألني :" هل هم أحياء ؟ " طبعا أجبت بالنفي إلا أنني أردت أن أعرف سبب هذا الاهتمام المفاجئ بأصحاب الصور فقلت له :" هذه الصور معلقة هنا منذ أكثر من سنتين لما تسألنا فقط اليوم عن أصحابها ؟ " أحسست أنه منزعج وقلق على غير عادته وبعد برهة من الصمت قال لي ":شوف أولدي جارنا عباس .. مفتش الشرطة ،عرف أنك تعلق هذه الصور وحذرني من مشاكلها فقد نجد أنفسنا في مركز الشرطة بتهمة الشيوعية !! " ثم استرسل قائلا:" شوف أولدي ... علق شي تصيورات تاع البنات أو النساء الجميلات ..أحسن من هذه الوجوه التي تقضي معها كل وقتك"!! لأخلصه من قلقه طمأنته وأكدت له بأنني سأجنبه المشاكل وسأعلق صور نساء...

بعد يومين دخل علي أبي ووجد أنني علقت صورا كثيرة لامرأتين غير أنه لم يبد علامات الغبطة بل ارتسمت على وجهه خيبة محبطة وسألني بقلق شديد":شكون هاذ النسا ؟؟" فأجبته :" إنهما روزا لوكسمبورغ و سيمون دي بوفوار " نظر إلي باستغراب وإشفاق وقال لي:" شوف أولدي .. هل تعاني من أية عقدة ؟ ألا توجد في مجلاتكم وجرائدكم صور نساء جميلات عاريات أو على الأقل كاشفات شيئا ما ؟؟؟"

البئر الملعونة

إلى كل ضحايا ساندريات مدينة جرادة ...الأموات و الأحياء..

كان معاذ مستيقظا كعادته ينتظر عودة أبيه من البئر التي يستخرج منها الفحم الحجري ، في أيام الحر كان الأب يشتغل مع صديقه العيد ليلا و يعود إلى البيت مع إشراقة شمس جديدة قديمة ...جلس معاذ إلى جانب والده يتفحصه بعينين صغيرتين تبحثان عن ابتسامة تائهة في فضاء الغرفة الضيقة لكنه لم يكن يرى إلا بقايا غبار فحم معاند استقر حول عيني أبيه فكحلهما بسواد متعب .

كانت أمه قد هيأت صينية الشاي قبل وصول " قويدر" وضعت وسطها برادا حديديا أزرقا زينته أزهار باهتة ثم أحاطته بثلاث كؤوس " حياتي" و في الجانب الآخر من المائد الدائرية ذات الثلاثة أرجل حطت صحنا تلاعبت وسطه كمية من الزيتون الأسود ... أحس معاذ بالدفء المألوف عندما سمع صوتا يشبه الخرير يحدثه السائل الساخن و هو ينهمر على الكؤوس مخلفا رغوة بيضاء رقيقة تزيد من دفء المكان و تستفز شهية الأسرة الصغيرة .

لم تخف حميمية المكان شيئا من اضطراب معاذ و مخاوفه فنظر إلى أبيه وقال له :" بابا لماذا تنزل إلى البئر الملعونة ؟لقد مات فيها جارنا عبد الله و جارنا عبد الرحمان و جارنا التهامي و ابن جارتنا فاطمة ...لا تعمل هناك ...أرجوك يا بابا " حدق الأب باستغراب في وجه معاذ وسأله:" من أين لك بهذا الكلام

الكبير عن سنك ؟" ثم أردف قائلا :" يا صغيري أنا أبحث هناك عن شيء من الشاي و السكر و الزيتون الأسود.. لولا إحسان البئر لمتنا جوعا !! " أحس معاذ بالذنب فقرر ألا يأكل أبدا حتى لا يضطر أبوه للبحث عن الشاي بين بقايا فحم أسود سواد الموت في غياهب بئر ملعونة.

الخطبة الثالثة

بعد أن فاز بكرسي رئاسة جماعة القرية المنسية قرر أن يفي بالوعد الانتخابي الوحيد الذي قطعه على نفسه بالمسجد أمام ساكنة فقدت كل قوة لمقاومة قضيات زمان بئيس ثمل بجراح الفقر والجهل والمرض والتهميش و أشياء أخرى.

كان الحاج بوالو في تواصل مستمر مع السكان ... كان يقصد السوق الأسبوعي على متن دراجته النارية يخطب في الناس يبيع لهم حلما طفوليا ثم يعرج على المسجد يبيع لهم قصورا وماء زلالا وفواكه وجنسا لم ولن يوجد مثله على أرضهم الغبراء ...

عندما تسلم مقاليد المجلس القروي من الرئيس السابق وجد أمامه ملفات كثيرة تنتظر ... ملف بناء مسجد كبير ..ملف المستشفى الذي لم ير النور بعد .. ملف قاعة الولادة .. ملف المدرسة ... ملف توصيل الدواوير بالماء والكهرباء ، لكن الحاج بوالو لم يأت لفتح أوراش كبيرة أو معالجة الملفات العالقة منذ استقلال البلاد .. مر أسبوع وشهر وشهران وثلاثة أشهر ولم يَفِ بعد الحاج بوالو بوعده ،ظن السكان أن الحاج لا يختلف عن أولئك الذين سبقوه ... كان يقف قبل كل صلاة جمعة على المنبر المهترئ يطمئنهم ويطلب منهم مزيدا من الصبر إلى حين يفرج المسؤولون الكبار عن ميزانية التسيير ولتطمئن قلوبهم دعاهم إلى تسجيل الأسماء التي ستستفيد من المشروع في لائحة عقب الانتهاء

من الصلاة. كل المسجلين كانوا يربضون بمقر المجلس القروي يقرفصون أمام باب الرئيس وفي يوم أغبر وقفت سيارة سوداء رباعية الدفع نزل منها الحاج بوالو واستعجل إخراج اللائحة من جيبه ونادى على أربعة أسماء من شيوخ الدواوير ،دعاهم بافتخار وأدب إلى ركوب السيارة التي انطلقت محدثة ضجيجا مهولا وغبارا حجب الرؤية .. بعد ساعة من الزمن عادت السيارة إلى مكانها وحملت مرة أخرى أربعة رجال فأربعة فأربعة ... تكررت العملية مرات عديدة وتكرر الركوب والنزول حتى أتى الحاج على كل الأسماء المسجلة في اللائحة ... .كان يوم الجمعة الذي تلا اليوم الأغبر يوما خاصا واستثنائيا حيث صعد الحاج بوالو المنبر وخطب في الناس خطبة ثالثة بعد خطبتي الإمام قال فيها : " أيها الناس ...نحمد الله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى...أيها الناس... في حال نجاحي في الانتخابات كنت قد وعدتكم بأن أقتني لكم سيارة تفتخرون بها أمام الجماعات الأخرى كما وعدتكم بأن تركبوا السيارة الفخمة وأحقق حلمكم الذي راودكم منذ طفولتكم وأخذت من وقتي الكثير وبذلت جهدا كبيرا فتجولت بكل شيوخ الدواوير وبعض المتزوجين و الشباب على متن هذه السيارة المباركة ها أنذا أفي بوعدي في اليوم الأول من وصول سيارتكم إلى الجماعة .... وهكذا لم يبق لكم عندي أي مطلب آخر ... اقسم بالله أنني بعت دراجتي النارية و أضفت ثمنها إلى ميزانية الجماعة لأقتني لي ولكم هذه السيارة الفخمة ونائبي في الجماعة شاهد على ذلك ... أيها الناس لقد

رفعت رؤوسكم أمام كل الجماعات المجاورة وآن لكم أن تفتخروا برئيسكم وسيارتكم ... أيها الناس من أراد منكم أن يمتع نفسه بنظرة أو لمسة فليأت إلى باب الجماعة و ينتظر خروجي أو دخولي بسيارتكم التي هي سيارتي لأنني رئيسكم ... سأبقى رئيسكم وأمتعكم أحيانا بجولات خاطفة حتى نغيض القبائل الأخرى ..... أقول قولي هذا واستغفر الله لي و لي و لي وإن بقي شيء من الوقت سأستغفر الله لكم أنتم أيضا وأقم الصلاة "

الراتب و الشقراء

تحسس الأوراق البنكية برؤوس أصابعه ، صعدت مع أطرافه نفس النشوة التي يشعر بها بداية كل شهر و كعادته اتجه الى مرحاض البنك ، تأكد مرتين من أنه أحكم إغلاق الباب وراءه ، هناك عد راتبه الورقة تلو الورقة وجدها كالعادة عشر أوراق من فئة مئة درهم فأنزل سرواله الكاكي و سرواله الداخلي القطني ثم وسع بيده اليمنى مدخل "شورته" الضيق و حط الأوراق البنكية في المكان الآمن قرب أعضائه الحميمية.

خرج من البنك في اتجاه بيته مشيا على الأقدام فكانت الأوراق البنكية تحدث صوتا بفعل احتكاكها فأحس بقشعريرة تسكن كل جسده وخيل إليه كأنه يستعد لمغامرة مع الشقراء التي سكنت أحلامه الحمراء منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة ...عند وصوله الى البيت ، انتبه إلى ملامح القلق بارزة على وجه زوجته، لطمأنتها أنزل السروالين معا بجرة واحدة و شق بيده ممرا عبر "الشورت" الذي زاد ضيقا بفعل الاحتكاك لكنه أصيب بدهشة تحولت إلى ذهول قلق .. لم يرد أن يصدق ما حدث فراح يتلمس بأصابعه كل جوانب "الشورت" وجدها فارغة إلا من أعضائه الحميمية أدارها يمنة فيسرى رفعها إلى الأعلى ثم أنزلها إلى الأسفل لم يجد الأوراق البنكية صرخ أمام زوجته :" لا يمكن !!!...أين الراتب ؟؟ " انهار ... فقد كل قوته ولم يستطع رفع سرواليه إلى مكانهما ، حاول أن يتذكر كل ما حدث له في الطريق كان متأكدا أنه أحكم

غلق حزام سروالـه الكـاكي و الشـورت ضـيق لا يسـمح بنـزول الأوراق البنكيـة إلى الأسفل :" لكن كيـف ؟؟؟؟ " للمـرة الألـف حـاول أن يتـذكر كـل تفاصـيل الطريق لكنه لم يسـترجع مـن كـل ركامـه إلا حلمـه الأحمـر فقـال بصـوت منكسـر- :" آه !!..إنهـا الحسـناء الشـقراء...هي السـبب !!! " لقـد اسـتأثرت بـه طيلـة ثلاثين سنة و حينما أتتـه طيعـة مسـتجيبة لرغبتـه المفقـودة أخـذت كـل راتبـه ثمنـا لوصال شقي .

الطابور

وأنـا أنتظـر في طـابور طويـل للظفـر بخـاتم المصـادقة عـلى بعـض الوثـائق ... أحسسـت بإرهـاق شـديد كـاد أن يسـقط جسـدي أرضـا فاتكـأت عـلى الحـاجز الحديـدي الـذي ينظمنـا في خـط مسـتقيم وتناولـت قنينـة مـاء أحملهـا معـي أينما حللـت وارتحـت وشربـت جرعـات مسـتعجلة حتـى لا ألفـت الانتبـاه و أتحاشـى العيون المستغربة والأسئلة الحرجـة لكـن خطتـي فشـلت ووجـدت نفسي- مضـطرا لأتكلم بعد أن بلعـت كـل المـاء الـذي ألقيـت بـه في فمـي وقلـت بصـوت منكسر- امتزج فيه الهمـس بحشرـجة مسـموعة :" اعتـذر .. لا أقصـد أن أتحـدى صـومكم ... رمضـانكم مبـارك وقيـامكم مقبـول إن شـاء الله... أنـا مصـاب بالسـكري ومضطر كي أشرب الماء حتى أجنب جسدي مضاعفات لا يحمد عقباها "

أنهيـت كلامـي وتواريـت خلـف ابتسـامة متوجسـة مـن عيـون تحـدق في بعنـف مسـتطير إلى أن وخـزني صـوت خـرج مـن الطـابور يقـول بحـزم عنيـد":لا يظهـر عليـك المـرض !!...هنـاك مـن يعـانون مـن أمـراض خطـيرة ولا يفرطـون في صومهم !!! أنا شخصـيا – أكيـد نحـن جميعـا في هـذا الطـابور نجمـع عـلى نفـس الـرأي - أفضـل أن أمـوت وأنـا صـائم عـلى أن أعـيش وأن كـافر أعـوذ بـالله مـن الشـيطان الـرجيم ..هـل سـمعت !؟ " اسـتللت جسـدي مـن الطـابور دون أن أقـدم أوراقـي إلى الموظـف وانسـحبت مـن دار البلديـة وأنـا أرفـع أقصى- درجـات

الحـذر والحيطـة ولم أشـعر بـالأمن والأمـان إلا بعـد أن اجتـزت بسـيارتي إشـارة الضوء الأحمر التي أوقفتني رغما عني.

الفتنة لا تنام قبيل العيد....

لازلت أتذكرُ حال أمي خلال شهر رمضان ،كم كانت تتعب، كحال زوجتي حاليا .. كنت أشفق على أمي لأنها كانت تحمل أعباء البيت وحدها لم يكن أبي يقاسمها هذا الهم إلا نادرا ...حاليا أحاول ألا أكرر نفس التجربة مع زوجتي، قلت لها مؤخرا: " لابد من استصدار قوانين تشريعية تجبر الرجل على مساعدة الزوجة في أعباء البيت...القوانين هي وحدها القادرة على تغيير الوضع ...و لكن على المرأة أن تكون لها الجرأة للتبليغ عن زوجها إذا لم يقدم لها يد المساعدة.." نظرت إلي بابتسامتها المعهودة و قالت لي:"لا عليك..يا حبيبي..لا تفكر في هذا الأمر كثيرا ...المشكل لا يرتبط بقوانين بقدر ما يرتبط بخلفية ثقافية...سيتحقق حتما التغيير ..ألا ترى ذلك في طبيعة علاقتنا ...حتما هناك أشخاص تغيروا مثلما تغيرنا نحن ..لا عليك ياحبيبي...آه تذكرت لقد سلقت البطاطس ، هل يمكن أن تنقيها ؟ هي هناك..شكرا لك حبيبي.. " في الحقيقة لا أريد أن أتكلم عن زوجتي بقدر ما أريد أن أتكلم عن والدتي "الحاجة فاطمة"...هناك تقاطعات كثيرة بينهما : طاعة الله ،الصبر ، المحافظة على توازن الأسرة ، إسعاد كل أفرادها... كانت والدتي تخرج إلى السوق وحدها عبر الأوطوبيس ، لم يكن يتجاوز ثمن التذكرة العشرين فرنكا، أي سنتيما بلغتنا الوطنية الحالية..بعد ساعات متعددة تعود محملة ، متعبة لكنها لا تستطيع أن تشرب جرعة ماء لأنها صائمة و حريصة أن يمر صيامها خلال كل

الشهر في طاعة الله و الزوج و إرضاء الأبناء ..كانت تعبر في صلواتها عن رضاها بما يمنحنا الله من أكل و شرب و صحة و نجاحات في الدراسة...بالمناسبة أمي درست في مدارس "الفرنسيس" إلى حدود القسم الثالث ابتدائي بمدرسة " ثلث سقاقي" بالمدينة القديمة ،كانت تكتب اسمها بالفرنسية و تحفظ أناشيد وطنية فرنسية ترددها أمامنا ،كنا نشعر باعتزاز كبير لكن لم نكن نميز هل هذا الاعتزاز ناتج عن فخرنا بمعرفة والدتنا لبعض الأناشيد الفرنسية أم ناتج عن الكلمات الوطنية التي كانت تشعل حماسنا... أما أبي فقد كان يشتغل مع مقاولين فرنسيين في البناء و استطاع أن ينسج علاقات صداقة مع الكثير منهم.. أبي هو الآخر كان يعرف بعض الكلمات الفرنسية ولكنة تعلم فقط كتابة اسمه باللغة العربية...كم كنا نضحك عندما يشد القلم بين أصابعه الغليظة ليخط بصعوبة مجموعة من الخطوط نتبين منها ملامح باهتة لاسمه.. لم نعان من الفاقة كما أننا لم نعرف التخمة ،...كانت السعادة تغمرنا بين والدين اهتما بنا كثيرا و حرصا على أن نأخذ حظنا من التعليم بالمدرسة العمومية المغربية... حينما يقترب عيد الفطر تكثر خرجاتنا إلى السوق مع والدتنا ..أحيانا كثيرة نعود بخفي حنين نجر أرجلنا المتعبة من كثرة الانتقال من دكان إلى آخر...كانت أمي تحرص على شراء الأحذية و الألبسة المتينة ، لكن بأثمنة منخفضة ، كان من الصعب أن تجد كل المواصفات المطلوبة في يوم أو يومين لهذا كانت تخصص الأسبوع الأخير من شهر رمضان للمهمة

المستحيلة... خلال الأيام الأخيرة من رمضان كانت أمي تقدم لأبي تقريرا مفصلا عن خرجاتها "التسوقية" بعد الإفطار .. كانت تحرص على احترام مجموعة من الطقوس فلا تقدم تقريرها إلا بعد أن يأخذ أبي كأسا من الشاي المنعنع " برزته" صحبة سيجارتين أو ثلاثة إلى حين يسترجع "ميزاجه" فتنفرج أساريره و يصبح قابلا للسماع و الحديث مع أمي ومعنا... في تقريرها لهذا اليوم عن مسلسل التسوق و هي تنظر في اتجاه أبي قالت له :" اليوم الفتنة فالسوق! ! " نظر إليها مبعثرا دخان سيجارته في كل أرجاء الغرفة الضيقة ضيق رئتيه المتعبتين فاسترسلت:" الفتنة تاع الصح ! ! الناس كلهم خرجوا ...أوطا في نوطا فيك.." رد عليها أبي ضاحكا :" ما عمرنا نتقدموأ ....غادي نبقاو دائما غي بهايم! ! " لم أتبين في تلك اللحظة العلاقة بين التقدم و فتنة السوق ، نظرت باستغراب اتجاه أبي دون أن اتجرأ على استفساره ، لكن منذ تلك اللحظة استقر في ذهني أن الفتنة لا تكون إلا في الأسواق عندما تقترب الأعياد ،حينما يخرج كل أهالي المدينة دفعة واحدة لقضاء حوائجهم... كنت اعتقد أن الفتنة لا تتجاوز أسبوعا واحدا ، تنتهي بمجرد ما يحل يوم العيد... كنت أستصغرها ..لم أكن أتصور أن هناك معنى آخر للفتنة ...يظهر أنني كنت على خطأ.. أليس كذلك ؟ ؟.

نهاية شجار

إلى شهداء و ضحايا شجار الآباء و الأمهات ...

اختلط في نفسه الفرح بالهلع حينما حمل مسدس أبيه بين يديه و أخذ يتفحص شكله و يلمس فوهته بأصابعه الصغيرة فارتسمت ابتسامة غريبة على شفتيه لأنه لم يجد عناء كبيرا ليكتشف كيف يطلق رصاصة أو أكثر في اتجاه معين فزاد عزمه و قرر ألا تراجع بعد الآن ..ربما سيصلح ذات البين بين أمه و أبيه.. ربما.... كان يظن أنه هو من يتحمل كل أسباب الشجار المتكرر الشرس بينهما ..كان يشعر بأنهما لا يحبانه أو أنه ولد خارج إرادتهما...أو خارج دائرة الحب.. جلس على كرسي في مواجهة باب الشقة وضع المسدس بين يديه و أحكم قبضته عليه واضعا أصبعه الصغير على الزناد موجها الفوهة نحو مدخل الشقة....كان مستعدا ليبقى على تلك الوضعية ساعات كثيرة ..و أياما عديدة.. على غير العادة لم تمر الا ساعات قليلة لا يعرف عددها حتى صدر من الباب أزيز يعلن أن أحدا يهم بدخول الشقة.

"ماذا تفعل بالمسدس أيها المجرم ؟؟ !!" صاح أبوه صوب وجهه ." انزل المسدس إلى الأسفل يا حبيبي " صاحت أمه بنبرة فيها الكثير من التوسل.

ظل رؤوف صامتا ينظر اليهما إلى أن رفع الفوهة الى الاعلى و أطلق رصاصة نحو السقف...ثم وجه المسدس نحو أبيه و أصبعه ثابت على الزناد ...جلس الاب على ركبتيه يلتمس الرحمة يتوسل أن يعدل عن قراره .. بعد فشل مسعاه نظر الى زوجته و صاح في وجهها :" لقد انجبت مجرما ايتها المجرمة !!"

اشتد العراك بين الزوجين تبادلا التهم و السب و الشتم و اللكم ... فجأة ساد الصمت و الترقب الى ان دوى في الشقة صوت انفجار عنيف معلنا عن نهاية رؤوف برصاصة فجرت رأسه الصغير.

بسطيلة بالحوت

كان الطلبة ينتقون ما يتلون من آيات بعناية فائقة لخلق أجواء من الرهبة والخوف فحرص بعض الحاضرين على إظهار خشوعهم بينما شرع البعض في طأطأة رؤوسهم وكأنهم يتحسرون على ما فاتهم من فرص التعبد والتهجد ورفع البعض الآخر سباباتهم إلى الأعلى وكأنهم يعلنون إسلامهم اللحظة .

كل الأجواء كانت توحي بأن الموت لازال يخيم على البيت وقد يختطف أحد الحاضرين في أية لحظة ولولا جاذبية الموائد الدائرية المنمقة والمنظمة بشكل لم يعهدوه لما مكثوا كل ذلك الوقت وكانت رائحة البسطيلة المحشوة بالسمك الأبيض تزيد من إصرارهم على الصبر وتحيي في ذواتهم غريزة التشبث بالحياة .

كان "الحاج سليمان الديبلاسما" من بين الحاضرين في حفل العزاء قضى- أكثر من خمسين سنة متنقلا بين ألمانيا وهولندا وبلجيكا اشتغل في كل المهن الممكنة التي لا تتطلب جهدا عقليا حج عشر- مرات واعتمر مثلها كان يروقه الحديث عن الغرب وحضارته فاستغل توقف الطلبة عن قراءة القرآن وانشغالهم بالبسطيلة ليستأثر بالكلام .....

تحدث عن الألمان ثم الهولنديين فالبلجيكيين ولخص كل حضارتهم وتفوقهم في قوله :" بزاف عينا باش نوصلوهم ذوك الناس خاصهم غي يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويكونوا خير أمة أخرجت للناس" صمت لحظة انشغل فيها هو الآخر بالبحث عن قطع السمك اللذيذ في أعماق البسطيلة ثم واصل

كلامه :" الاسلام للي كاين فذوك البلدان ما لقيتوش حتى فمكة ... حجيت عشر- مرات ودرت العمرة عشر- مرات والله ماكاين الاسلام بحال للي كاين عند للهان وهولندا والبلاجكا "

رفع الحاج سليمان رأسه ليرى مدى تجاوب الحاضرين مع كلامه فوجد كل الرؤوس مطأطئة والأيدي منشغلة بالبحث عن أطراف السمك الأبيض داخل البسطيلة فقال لهم بنبرة مستخفة :" صيدوا الحوت فهاذ البسطيلة راه خوتكم المسلمين باعوا لبحر للكفار ... ياك باقي مقاطعين الحوت ألخوت وللا الحوت هو للي راه مقاطعكم ؟؟؟ " لم يعبأ بكلامه أي أحد فأدرك أن الحاضرين منهمكين الآن بالصيد في أعالي البسطيلة ... لم يعد الموت يخيفهم .

وأنا أبحث عن حقي من سمك الوطن بالسوق أتعبتني الأثمان وبدا لي السمك الأبيض كشقروات جميلات وقد ارتدين " البيكيني" وتمددن على الرمال الذهبية يأخذن كل أشعة الشمس فتبرق أجسادهن لتستفز كل المتجولين الناظرين وتشعل في دواخلهم رغبة اللمس والتقبيل ... كغيري من المتسوقين أحسست برغبة جامحة تقود يدي نحو شقراء من الشقراوات الممددات إلا أنني تمالكت نفسي وقلت بصوت غير مسموع : "اللهم إني صائم... اللهم جنبني فتنة النفس الأمارة " استعدت توازني وكبتت رغبتي مخافة أن أسقط في المحظور ومخافة أن أتهم بالتحرش الجنسي- بالسمك الأبيض وهكذا لم أنل الشقراوات الفاتنات وقلت في نفسي- على أن أعرج بجسدي المرهق وخطايا المتثاقلة نحو صناديق السردين لكن بمجرد ما رأيته اشتغلت عجلة الذاكرة وأرجعتني إلى الماضي حينما كان السردين واحدا من الأقارب والأصدقاء و"أولاد الحومة" كنا نلتقي "برأس الدرب" نتجاذب أطراف الحديث ونخطط لموسم التخييم الصيفي "بالبيافرا" ... كان السردين حاضرا في كل رحلاتنا ... في " البيافرا" تعلمنا أشياء كثيرة ،تعلما الاعتماد على النفس والضحك والوفاء كما تعلمنا كيف نحترم السردين ونهيئ به "الطاجين" فنضع عليه أطراف الليمون وفلفلا حارا يلهب شهيتنا ...

بيـافرا سـبعينيات القـرن المـاضي كانـت مدرسـة قائمـة الـذات وكـان شـاطئ السـعيدية فضـاء كـل البسـطاء... فجـأة انقطـع هـدير الـذكريات عنـدما سـمعت صـوتا يقـول لي :" آش حـب الخـاطر أأسـتاذ !؟ " نظـرت نحـو مصـدر الصوت وأحسست ببـائع السـمك يسـتعجل ردي فسـألته :" كـم ثمـن السرـدين ؟" لم يرد علي بل لم ينظر إلي اشتغل بتحضـير طلبـات الزبـائن وتركنـي أتبخـر شـيئا فشيئا إلى أن تلاشى جسدي بين الزحام.

تقاعد و ماء ساخن

لم ينم ، كان يتقلب يمنة و يسرى في فراشه .. كان يفكر أحيانا بصوت مسموع فيوقظ زوجته التي كانت تكتفي بملامسة وجهه و تقول له :" نم يا حبيبي ...غدا ينتظرك عمل شاق...حاول أن تنام أرجوك.. " ابتعد عن جسد زوجته و سكن ينصت لحديثه الصامت : " لا شك أن الحضور سيكون كبيرا....لا شك أنهم سيدلون بشهادات مؤثرة في حقي....لم أتغيب عن عملي يوما واحدا حتما سيطلبون مني أن أقول كلمة ... ماذا سأقول...؟؟" مع بزوغ أولى أشعة الشمس قام من فراشه ، نظرت إليه زوجته باستغراب كبير و تساءلت في نفسها :" لم يتعود إبراهيم أن يقوم من فراشه مع الفجر ، لم أعهده يصلي صلاة الفجر غريب ...هل تغير ابراهيم ؟..ربما .. " بعد حين أدركت أن زوجها قام ليحضر نفسه للحدث الهام الذي ينتظره بعد العصر. أراد أن يشرك زوجته فرحته فأيقظها بإلحاح و طلب منها أن تحضر فطور الصباح بينما هو يحلق وجهه و لم يستطع أن يمنع شريط حياته العملية من أن يمر أمام عينيه فكان يرى ظلاله على المرآة كان الشريط يمر سريعا ملونا بألوان الفرح و السعادة كان يبتسم و تصدر عنه ضحكات تبتسم لها زوجته . أمام طاولة زجاجية داخل المطبخ جلس بجانبها ملأت له كأسا بقهوة سوداء خفيفة فقال لها بعد أن رشف من كأسه رشفتين :" أشعر يا حبيبتي بفرحة كبيرة...كان حب تلاميذي لي يزيدني قوة و إصرارا ....في نفس الوقت أشعر أنني وضعت حملا

ثقيلا...أخيرا ....أخيرا سنقضي- أنا و أنت أوقاتا جميلة ..أشعر بارتياح لأنني أديت مهمتي بكل حب و مسؤولية ...أحببت عملي بنفس درجة حبي لك.. "لكنها قاطعته و الابتسامة تعلو شفتيها:" يبدو لي أنك كنت تحب عملك أكثر مني ...خلال خمس و ثلاثين سنة مضت و هي عمر زواجنا تحدثنا عن عملك أكثر من حديثنا عن حبنا.." خرجت من أعماقه ضحكة طفت على عينيه و قال:" آه ...لقد كنت تغارين من عملي ...أعدك سنتحدث عن الحب فقط ..أعدك حياتي..." فجأة وقف بعد أن نظر إلى ساعته و قال و هو يهم بالانصراف : " علي أن أذهب إلى المصبنة لأحضر- بذلتي ... البذلة التي اشتريتها بمناسبة عيد ميلاد زواجنا الثلاثين ...سأحضر- بها حفل تكريمي أريد أن أكون أنيقا كما تحبينني ...سيزداد جنونك بي كما ازداد عشقي لك ..." ابتسمت في وجهه و أهدته قبلة حنان على شفتيه و تركته ينصرف . على الساعة الثالثة زوالا كان جاهزا للتوجه إلى مقر الحفل واستعجل زوجته كي تكون جاهزة هي الأخرى ...تعود ابراهيم أن يكون منضبطا في وقته لم يتأخر يوما عن تلاميذه و لن يتأخر اليوم عن حفل تكريمه بالمديرية. ركب سيارته السوداء الصغيرة وانطلق صحبة زوجته قبل موعد الحفل بساعة كاملة لأنه يعرف إكراهات الطريق بمدينته المبعثرة بين كثرة السيارات و الباعة المتجولين و العربات المجرورة بالدواب و... و...قدر كثافة الازدحام و وقت البحث عن مكان قريب من المديرية يركن فيه سيارته لأنه لا يستطيع أن يسير مسافة طويلة

كان يجبره ألم شديد على التوقف ...ألم أرقه منذ أكثر من أربع سنوات بسبب طول الوقوف بجانب سبورة القسم . أمام بوابة المديرية ، سأله الحارس عن غرضه فقال له :" أنا الأستاذ إبراهيم ....إبراهيم بنعبد الله ...هذه زوجتي ...إنهم ينتظرونني هنا من أجل الاحتفاء بي ...لقد أحلت على التقاعد." على الفور رد الحارس :" آه ...نعم ..نعم ...عليك أن تقصد مكتب نائب المدير إنه في انتظارك ...في ذلك المكتب ...إنه أمامك." في طريقه إلى المكتب توجه بالكلام إلى زوجته :" أرأيت إنهم في انتظاري ؟؟...أرجو ألا أكون تأخرت عن انطلاق الحفل.." دق باب المكتب و دخل مع زوجته ، هناك وجد رجلا ضخم الجثة ملقى على أريكة واسعة فأسرع بتقديم نفسه :" أنا الأستاذ ابراهيم بنعبد الله ...اليوم حفل تكريمي ..هنا بالمديرية ..."

الرجل الضخم :" هنيئا لك ...في الحقيقة لقد ارتحت من هرج و مرج التلاميذ ...هنيئا لك "

ابراهيم:" أرجو ألا أكون قد تأخرت عن الحفل ...تعرفون سيدي ..الطرق ضيقة و مزدحمة..و.."

الرجل الضخم :" لا عليك ..لم تتأخر بل للأسف حدث تغيير في مراسيم الحفل .."

ابراهيم :" كيف ؟"

الرجل الضخم :" السيد المدير في مهمة خاصة مع السيد الوزير فتم الاستغناء عن الحفل و كلفني السيد المدير بتسليمكم هداياكم ...أقصد هدايا كل المتقاعدين و المتقاعدات ... و هذه هديتك ...تفضل السي ابراهيم.."

أخذ ابراهيم هديته تفحصها مليا و قال :" أنا أعرف ما بداخلها ...بطانية و ثوب جلابة صوفي و سبحة و سجادة أليس كذلك ؟" تفاجأ الرجل الضخم و قال في استعجال غير محسوب : " هذه السنة السيد المدير كان رحيما بكم و أضاف سخانا كهربائيا للماء ...يعرف أنكم في هذا السن تحتاجون ماء وضوء ساخن ...أليس كذلك.؟"

صدرت عن ابراهيم قهقهة كسرت الصمت الكئيب المخيم على المديرية لم يفهم الرجل الضخم سببها لكن الزوجة فهمت و ضحكت باحتشام ....تركا الهدية على مكتب الرجل الضخم وخرجا من المديرية متجهين إلى أجمل مطعم بالمدينة ليحتفلا باستعادة حبهما من سبورة و طباشير و جذاذات لم يفهم جدواها طيلة أربعين سنة...

بمناسبة الثامن مارس إلى نساء من وطني يناضلن يوميا من أجل كرامة المرأة

" ألو أين أنت ؟..اسرع يا حبيبي...لقد حان الموعد ...إنها ليلة الثامن مارس ...أنسيت ؟؟"

كان سعيد لا يزال بالمطبعة يعطي تعليماته الأخيرة ليخرج مولوده الأول إلى الوجود في أحسن حلة لكن تحت إلحاح زوجته سعيدة غادر المكان وهو يلتفت إلى الوراء يقاوم رغبة تغريه بالمكوث حتى يرى أول نسخة من ديوانه الشعري " قوامة أنثى.." تشرق من ألة التصفيف .

فتح باب الشقة و اتجه نحو غرفة النوم أين كانت سعيدة ممددة على السرير تعلن بآهاتها عن بدايات المخاض فقال لها بنبرة جد حادة " في الحقيقة الوقت غير مناسب للوضع !!! " دون أن يهتم بأوجاعها استرسل في حديث عن ديوانه الشعري وعن حفل التوقيع و بكثير من التعالي فسر لها رؤيته الشعرية العميقة ذات النزعة الثورية فتوهجت شفتاه بابتسامة نصر مبين و قال بصوت مرتفع : " أكيد أن ديواني الذي سيصادف الثامن مارس سيكون دعامة قوية لنضال المرأة من أجل تحقيق مطالبها العادلة !!!" أوقفت سعيدة سيله الجارف من الكلمات التي يغرفها من مختبر نضاله الصالوني و قالت له بجهد جهيد :" حبيبي الثوري .. في ليلة الثامن مارس لدي مطلب واحد.. أريد فقط أن

أصل إلى المستشفى حية ...آلام الوضع تنهكني.. تقطع أحشائي !! " كمن استفاق من أحلام اليقظة اتجه بزوجته خارج الشقة ..لكن سرعان ما استبدت به أحلامه مرة أخرى وعاد إلى ديوانه الشعري ليتحدث عن عدد قصائده وصورة وألوان الغلاف و عن المطبعة و حفل التوقيع ...استمر شلال كلماته هادرا لا يعبأ بآهات وأوجاع زوجته وهو يسير عبر الشارع الواسع وقبل أن يقف أمام بوابة المستشفى قال لها :" آه !! قبل أن أنسى هل حضرت لي العشاء ؟ و أين هي بذلتي السوداء و ربطة العنق سأكون غدا عريس الحفل ...إنه حفل توقيع ديوان شاعر ثائر ملتزم بالدفاع عن قضايا المرأة. "

في طريقها إلى غرفة الولادة و هي ممددة على سرير متحرك حددت له مكان البذلة و أوصته بأن يسخن عشاءه و بينما كان يهم بالانصراف نادت عليه الطبيبة وقالت له " عليك أن تبقى إلى جانب زوجتك ..إنها أقل هدية تقدمها لها ليلة الثامن مارس " وافق سعيد على مضض واختار أن يبقى في غرفة الانتظار و لم يفوت فرصة تحفيز الطبيبة على الاسراع في عملية توليد زوجته لأن مهاما جسيمة تنتظره بقاعة الانتظار عرض سعيد أمام عينيه كل السيناريوهات الممكنة و غير الممكنة لحفل توقيع ديوانه وكان في كل سيناريو يوجه عدسات الكاميرات نحوه فلم يعبأ بمرور الوقت إلى أن سمع صوت ممرضة تناديه وتخبره بأن الطبيبة تطلبه...هناك على مكتبها وجد صورا لفحوصات بالأشعة وتقارير كثيرة مبعثرة ودون مقدمات قالت له:" زوجتك

- و أظن أنك تعرف ذلك - تحمل في بطنها توأم و هناك إشكال عويص لأن الوضعية الصحية للجنينين جد حرجة ... " قبل أن يلتمس منها المزيد جالت في ذهنه أفكار سوداء رددها مرغما في صمت مخيف :" يبدو أنني سأتأخر عن حفل توقيع ديواني !! يبدو أن عين حسود ستحرمني من فرحة التميز على الأعداء !!!"

ظنت الطبيبة أن سعيد قلق على مصير زوجته و التوأم فأرادت أن تضع حدا لقلقه و أضافت :" سي سعيد .. زوجتك حامل بذكر و أنثى وضعيتهما داخل البطن غريبة و نادرة و أصبح من الصعب بل من المستحيل أن نضمن الحياة لهما معا .... سي سعيد ...الأمر صعب ... أنت وزوجتك أمام خيارين أحلاهما مر ..عليكما أن تضحيا بأحد الجنينين ليعيش الآخر.."

لم يستفت سعيد سعيدة ودون أن يتعثر القلم بين أصابعه كتب ووقع ما يلي: " أنا الموقع أسفله السيد سعيد بن أسعد السعداتو و أنا في كامل قواي العقلية و النفسية أوافق على التضحية بالتوأم الأنثى وأوافق على منح جسدها لطلبة كلية الطب من أجل المساهمة في تطوير البحث الطبي في وطننا العزيز ."

الإمضاء سعيد بن أسعد السعداتو.

سيرة موظف

إننا نعيش قصصنا في كل لحظة .

بخطى أردتها ثابتة ولجت بوابة المقاطعة وبمجرد ما وطئت قدمي اليسرى الفضاء الواسع غير المنظم وجدت من يرشدني إلى المكتب المختص بملفات تأسيس الجمعيات بل عرفت حتى اسم الموظف المكلف وعمره ولون معطفه وسيارته .

كنت أظن أن سعيي المضني وراء تكوين الملف قد أشرف على نهايته ولم يتبق منه سوى أن أطرق باب المكتب وأفتحه فتنتهي كل متاعبي...فعلا و بخطى أكثر ثباتا طرقت الباب .. دخلت المكتب فإذا أنا أمام موظف أفرغ كتلته الجسدية على أريكة وقد نال منه الاسترخاء و لم يعد قادرا على فتح عينيه بفعل التدفئة والمعطف الصوفي الغليظ الذي يلبسه.

رد الموظف على سلامي بتثاقل فاضح وأحسست من نبرة رده أنه يتوجس مني شرا ويستعد لأخذ الحذر مخافة أن أطلب منه إنجاز عمل ما يجبره على إخراج يديه من جيبي "دفيته".. ليقطع الشك باليقين رفع عينيه نحوي وسألني عن سبب الزيارة فقلت له :" أريد يا سيدي أن أقدم لكم ملف تأسيس جمعية النور للثقافة والتربية كما أرجو أن تسلموني وصل إيداع هذا اليوم." نظر إلي شزرا و طلب مني أن أناوله الملف ... شده بين يديه المنتفختين بفعل الراحة والحرارة

وشرع في تفحص محتوياته والإحساس بالارتياح يرتسم على شفتيه فبدا كمن يتخلص شيئا فشيئا من عبء ثقيل وقال لي:" الملف ناقص يلزمك خمس نسخ من كل وثيقة !!!"

اقتربت من المكتب ،تسلمت منه الملف وقلت له :" سأنسخ اللحظة كل الوثائق حسب ما طلبتم يا سيدي ..و أعود اليكم بعد قليل بالملف جاهزا ."

أشاح بوجهه نحو النافذة المغلقة ورد علي بغضب واستعجال مقصود: "قد لا تجدني عندما تعود !!! سأذهب الى المسجد لأصلي الظهر !!! أنا لا تفوتني صلاة الجماعة فيها أجر عظيم !! أنصحك ألا تعود اليوم.. أنا متعود على عدم الرجوع الى العمل بعد الصلاة ."

شاي و خبز أسود.

إلى كل شهداء الخوف

مع اقتراب آذان العصر كان يخرجنا السي- الورطاسي إلى الساحة لنتوضأ بجانب النافورة التي كانت تزين ساحة المدرسة ... كنا أطفالا صغارا نخرج في هدوء لنمارس عبادة لم نعرف معناها و جدواها...كان الخوف من السي- الورطاسي يحفز فينا غريزة التبول على سراويلنا الغليظة ،و كان برد الشتاء القارس يزيدنا ألما و ارتجافا... لم يكن "ولد القاضي" يخرج معنا إلى نافورة الساحة ، كنا نظن أن الله رفع عنه الوضوء لأنه ابن قاضي المدينة ...أثناء حصة الوضوء كان يتمرن على حل المسائل الرياضية بينما تكلف أربعة تلاميذ غلاظ شداد بتحويل القسم إلى قاعة للعبادة ، يحملون المقاعد الخشبية الثقيلة و يضعونها متلاصقة في الخلف، و هم نفسهم من كان يكلفهم السي- الورطاسي بشد أرجل التلاميذ في حصة الفلقة، كنا نظن أن زبانية جهنم أرحم من لفطس و بوشلاغم والعسكري و باسو...عندما يشعر سي الورطاسي أن مهمة الزبانية قد انتهت يعود بنا إلى القسم فنصطف كبنبان مرصوص ..تجبرنا نظراته القاسية على ألا نترك للشيطان أي ممر بيننا ..بعد المراقبة يقف المعلم بجانبنا يومئ براسه "ولد القاضي" بأننا مستعدون للوقوف بين يديه أو بيد الله ، فيتجه نحو زربيته الخاصة ليصلي بنا صلاة العصر.

كانت حصة الصلاة تمر مرعبة مخيفة ،غالبا ما تختم بحصة الفلقة تصيب كل من تجرأت مؤخرته على إطلاق ريح أو من فاحت من سرواله رائحة بول ... خلفت فينا الصلاة جراحا نفسية غائرة، لم تستطع السنوات المتعاقبة أن تمحو آثارها ...كنا نظن أن القسم قطعة من جهنم ...و بقدر ما كرهنا الصلاة و السي الورطاسي بقدر ما حقدنا على ولد القاضي ...لم نكن نشعر بالجنة إلا و نحن في منازلنا بالقرب من أمهاتنا نحتسي شايا و نأكل خبزا أسودا.

صلاة استخارة

توضأت و صلت صلاة استخارة و قصدت سوق المواشي و اشترت شبيهة العنزة التي رأتها في المنام...كانت عنزة اسبانية جميلة تناسلت عنها الكثير من الأحلام الوردية الهادئة ...حقيقة أنها كدت من أجل جمع ثمنها كانت تضع في صندوق حديدي الدرهم على الدرهم لأكثر من سنة و نصف ، حرمت نفسها من ضروريات ملحة

في طريق العودة إلى بيتها رأت نفسها تحلب العنزة و تصنع أجبانا تبيعها إلى الأقارب و الجيران و رأت نفسها تضع مرة أخرى الدرهم على الدرهم في الصندوق الحديدي و تشتري عنزة اسبانية ثانية فيكثر الحليب و تكثر الأجبان ابتهج وجهها بابتسامة عريضة و قالت في نفسها :" سيكون بوسعي أن أبيع المنتوج في الأحياء االمجاورة و قد أغامر نحو الأحياء الراقية البعيدة "... جمعت محصول أجبان الصباح و اتجهت إلى الحي الراقي لقد تعودت أن تبيع كل محصولها الصباحي إلى الحاج الكالامار ...شخصية واصلة ذات أذرع أخطبوطية يملك أسطولا من بواخر الصيد في أعالي البحار ، متخصص في صيد الأخطبوط و الكالامار ، يخرق الراحة البيولوجية و يبيع كل منتوجه للروس و اليابان و الصين.. وقفت "مولات المعزة"بالقرب من بوابة قصر الحاج الكالامار تنتظر خروجه لكن و على غير المألوف خرج على متن سيارته دون أن يلتفت إليها حاولت ان تتبعه فأوقفها الحارس و صرخ في وجهها

"الحـــــــاج مشـــــــغول ،ســـــــيري فحالاتـــــــك"

خرج الحاج الكالامـار مسرـعا ذاك الصـباح و هـو يعـرف أن كـل شيء مسـخر لـه لا يحتاج إلى أية صلاة استخارة بما أنـه مـن الـوطنيين الأوفيـاء فقـط عليـه أن يصـل في الوقـت المناسـب ..لقـد كـان عـلى موعـد مهـم مـع خـدام الدولـة.. إنهـم يتقاسـمون في تلـك اللحظـة بالـذات ثـروة الـوطن ...و يجـب أن يلحـق القسـمة ليأخذ نصيبه كاملا...

عاشوراء

و هما في طريق العودة إلى منزلهما بعد أن فرغا من صلاة العشاء بالمسجد قال له سي عبد الرحمان :" لو تعلم الخير في صيام يوم عاشوراء لتمنيت أن تكون كل أيام السنة عاشوراء " نظر إليه سعيد بعينين يبرق منهما ترقب المزيد فاستطرد سي عبد الرحمان قائلا :" صوم يوم عاشوراء يغفر فيه الله ذنوب سنة بكاملها ....يعني يا أخ سعيد... مهما ارتكب الإنسان من ذنوب سيغفرها الله له بصوم هذا اليوم العظيم ...أنا أمثل عاشوراء بتلك المحاة التي كنا نستعملها في المدرسة ...تلك التي كنا نمحو بها أخطاءنا...سبحانك يا رب أنت الغفور الرحيم..." ... قبل موعد عاشوراء بيومين و هو خارج من بيته صادف سعيد الطفلة أريج ذات السبع سنوات كانت تلعب بعروستها تكلمها و تحذرها من الذئاب الشرسة فاقترب منها أهداها حلوى صغيرة و مسح على رأسها ثم ابتسم في وجهها إلى أن استسلمت له براءتها الطفولية وضع يده في يدها و أقفل راجعا إلى البيت... بعد لحظات معدودات خرجت أريج من البيت دون عروستها تحمل فقط عينين زائغتين تحدقان في فراغ مخيف ثم خرج سعيد بعد أن ألبس عينيه شيئا من الوقار الزائف ، يحمل على كتفه حقيبة صغيرة قاصدا حمام الحي... لقد اقترب يوم عاشوراء و عملا بالسنة يريد أن يصوم تاسوعاء و عاشوراء ... يريد أن يصوم اليومين معا وهو على أتم الاستعداد ....فيهما أجر عظيم و مغفرة تمحو ذنوب سنة بكاملها ....مهما عظمت تلك الذنوب.

عين المكان

إلى روح والدي ... كان حداثيا رائعا

كان أبي يتلقف أخبار السياسة إبان الاستعمار وكان يفهم أشياء وتغيب عنه أشياء لهذا لم يتأخر في أربعينيات القرن الماضي في الانخراط بحزب الاستقلال ،كان يقدم مساهمة مالية منتظمة للحزب رغم قلة اليد ... حينما حصلنا على الاستقلال عرضوا عليه أن يلج سلك الشرطة في الحقيقة لا أعرف من قدم له ذلك العرض لكن والدي رفض لقد كان بناء يحب مهنته أكثر من أي شيء آخر حذقها على يد الفرنسيين .. استمر والدي في تتبع أخبار السياسة و السياسيين إلا أنه انسحب من حزب الاستقلال وأحس بأنه تخلص من عبء كان يثقل كاهله وعندما اقتنينا التلفاز في بداية سبعينيات القرن الماضي لم نتخلص من المذياع الكبير ظلت والدتي وفية له تستمع فيه إلى وصفات السيدة ليلى الجزائرية كما بات والدي يتتبع الأخبار على المذياع والتلفاز معا وبعد فترة ليست بالقصيرة انسحب المذياع من المشهد وبقي التلفاز وتشبث أبي أكثر بمشاهدة الأخبار . ... كنت إلى جانب إخوتي نشعر بضيق كبير حينما يجبرنا الوالد على تغيير القناة من التلفزة الجزائرية إلى التلفزة المغربية ليتتبع الأخبار .. الغريب أنه كان أحيانا يغفو ولا يصحو من غفوته إلا حينما تنتهي الأخبار وأسمعه يقول :" الله ينعل جد بابكم قتلتونا غي بلكذوب "

ذات يوم قررت أن أسأله فقلت له :" بما أنك تعرف أنهم يكذبون لماذا تتتبع الأخبار باهتمام كبير؟؟" نظر إلي وقد علت وجهه علامات حيرة واستغراب ورد:" أعرف أنهم يكذبون !!!ليس هذا ما يقلقني ولكن ما يحيرني أكثر أنني زرت جل مدن المغرب ولم أعرف بعد أين توجد هذه المدينة التي يسمونها " عين المكان" !!" بدوري أصبت بحيرة كبيرة فسألته على استعجال :" لم أفهم ... ولكن أين سمعت هذه " عين المكان"؟؟" رد علي والحيرة غطت كل ملامح وجهه:" منذ أن اشترينا التلفاز الملعون وأنا أسمعهم يقولون : دارت بين الوزيرين محادثات بعين المكان ... إلتقى الوزيران بعين المكان ... دشن الوزيران بعين المكان ...فأين توجد هذه عين المكان ؟ و لماذا تهتم الحكومة فقط بعين المكان ولا تفعل شيئا لمدينة وجدة المنسية بين جوج بغال مغلقة وأرض جرداء قاحلة ؟ " استعصى علي الفهم ولم أستطع أن أخلص أبي من حيرته بل انتقل جزء كبير منها إلي لكن والدي استمر يبحث عن هذه المدينة العجيبة التي يلتقي فيها كبار الدولة ... يتباحثون ... يأكلون.. يشربون ... يمرحون ... يوقعون....يدشنون ويضحكون.... رحل أبي إلى دار البقاء ولم يعثر على عين المكان لكنه أدرك قبل وفاته بأيام أن "عين المكان" ... مكان عجيب وغريب وسحري انفرد به المسؤولون الكبار وتركوا الشعب يبحث عن سراب ولو في عرض بحر هائج بجانب قرش مفترس.... رحمك الله يا أبي.

كنت في بداية مراهقتي وكانت ليالي صيف مدينتنا الحدودية تجبرنا على خلق متعة السهر والسمر وتفتح شهية الأسر على إقامة الأعراس والأفراح ...كانت ملامح الأحياء تتغير وتتحول الطرق والشوارع إلى قاعات حفلات مفتوحة في وجه الضيوف والمتطفلين ..لم نكن بحاجة إلى دعوات خاصة لحضور أي عرس يقام بحينا أو بالأحياء المجاورة كانت روائح الطبخ وزغاريد النساء وجلبة الأطفال كافية ليستعد كل سكان الحي لقضاء ليلة بيضاء .

كنت أحرص على حضور أي عرس يقام بحينا أو بالأحياء المجاورة وكنت أفضل تلك الأعراس التي تصدح فيها " الكسبة والكلال ..."كنت أحب سماع صوت "الكلال" بإيقاعاته الرتيبة الجميلة كما كنت أعشق حركات "الركاصة" وهي تتنقل من مكان إلى آخر في خفة نادرة توقظ في دواخلي رغبة جنسية تحلق بي أحيانا في سماء لذة غريبة لم أكن أفهمها في تلك الفترة.

كانت " الركاصة" تضع على وجهها خمارا صغيرا مزركشا يزيد من فتنة عينين مكحلتين ولم تكن تتحرج من إظهار أجزائها المغرية.. كان صدرها المنتفخ الكثير الاهتزاز يفرض على الحاضرين انتباها خاصا يجعل العرس يمر في الغالب بدون مشاكل... كانت "الركاصة" ترقص في مشيتها تحرك أردافها وتهز صدرها وتتجه نحو عينة من الرجال فتقترب من أحدهم ولا تبتعد عنه

إلا بعد أن يلوح في السماء ورقة نقدية يتلقفها "البراح" ليبدأ في نسج كلام مسجوع يشبه الشعر العربي القديم ..

كان كلام "البراح" يبدو لي غريبا يحتاج إلى مفاتيح لفك ألغازه ،لم أكن أعرف لماذا تخرج من أفواه النساء زغاريد حارة تفوح منها رائحة السواك التقليدي كلما أنهى "تبريحته" ولم أكن أفهم لماذا يكرر البراح لازمة وهو يوجه أنظار الحاضرين نحو "المخازنية" الجالسين على كراسي بعيدا عن إغراءات "الركاصة" كان يرفع صوته الجوهري المسموع فيقول:" وفي خاطر مخزن سيدنا "كنت أظن أن تواجد "المخازنية" بالأعراس يدخل ضمن الطقوس التقليدية للعرس المغربي وذهبت بي الظنون الى الاعتقاد أن تواجدهم هو من باب مباركة السلطة للعرس بل ذهبت بي الظنون بعيدا واعتقدت أن السلطات العليا تخول لهم الحق في مصاحبة العريس لتوثيق ما يقع بالضبط داخل غرفته ورفع تقارير إلى المسؤولين ،كم كنت أغبط "المخازنية" على هذا الامتياز الخارج عن المألوف ...

كانت اعتقاداتي تحفز في رغبة جامحة لمغادرة ما تبقى في ذاتي من رواسب الطفولة وتدفعني بقوة لتخطي مراهقتي المرهقة وبلوغ الرجولة حتى يكون لي الحق لاقتحم عالم الألغاز و الإشارات و أتمكن من إغراء "الركاصة" الجميلة لتقترب مني فأضع بين نهديها ورقة بنكية زرقاء من فئة مئة درهم ويدنو مني " البراح"فيهلل "بتبريحتي"وألتمس من المخازنية مصاحبتهم إلى غرفة العريس

لأرى مـــا يقـــع ليلـــة الزفـــاف و أقـــرا مـــا كتبـــوا في تقريـــرهم ... كانت رغباتي مزيجا من أحلام طفولية مجنونة وعبث مراهقة تائهة لم تجد بعد من يفسر لها أبجديات الحياة .. عندما كبرت وحصلت على ورقات زرقاء كثيرة من فئة مئتي درهم هرمت"الركاصة " وأصبح لها مريدون تعلمهم الأذكار في زاوية بحي منسي وحج البراح بعدما بح صوته وكسر- الكلال والكسبة وأتقن "المخازنية " لعبة الجري وراء الباعة المتجولين والمعطلين المطالبين بحقهم في الشغل و لم يعد سكان الحي والأحياء المجاورة يقيمون أعراسهم على قارعة الطريق.

معاش المؤخرة المناضلة

"إن الغرائبية المستوحاة من الواقع بهدف تأسيس رؤيا تمتح أشياءها من الكوميديا السوداء تجعل من القصة القصيرة أداة نقد فعالة تساهم في بناء مجتمع جديد أكثر إصرارا على التغيير." ع. المجيد طعام

في منطقة ما من هذا العالم الفسيح تحدث الحكاية .... أرويها لكم كما رواها لي ابي....

لم تفصح التحاليل المخبرية عن أشياء كثيرة ولم تمنح الأطباء أجوبة شافية لتساؤلاتهم الكثيرة فعبرت ملامح وجوههم عن قلقهم وفشلهم في تشخيص الأسباب التي أدت الى انتشار مؤخرة "السي- بولحناك" بهذا الشكل الغريب إلى درجة لم يعد يجد سروالا يخفي بداخله كل تلك الكتل اللحمية المتدلية بل أصبح يتحرج كثيرا حينما يأتيه وقت قضاء الحاجة لأن مقاسات المرحاض عجزت عن استيعاب مؤخرته ولم يبق أمام أسرته إلا اقتناء حفاظات كبيرة الحجم سرعان ما ضاقت هي الأخرى ولم تعد تستوعب إلا ثلث مؤخرته ...

أمام هذا الوضع الحرج أشار الأطباء على أسرة "السي- بولحناك " أن يحجزوا له غرفة في عيادة من العيادات الكبرى ليكون قريبا من الأطباء كما نصحوهم بضرورة الاتصال بفخامة رئيس الحكومة ليجد له حلا أو على الأقل يمتعه بتقاعد مريح يساعده على تجاوز ابتلائه...

وجد السيد الرئيس في قضية "السي- بولحناك" فرصة لصرف الأنظار عن فشل اختياراته السياسية وتصاعد وتيرة الاحتجاجات الشعبية فجيش كتائبه الإلكترونية والصحافة المأجورة لتكتب فقط عن مؤخرة "السي- بولحناك" كما سهر على تنظيم الحفلات والندوات والمهرجانات واستأجر فنان المهمات الصعبة ليغني عن المؤخرات كما أسال لعاب الفقهاء فشمروا عن سواعدهم للإفتاء في الأمر .. عاش الوطن بكل أطيافه ومثقفيه وأحزابه الاستثناء.

بكثير من الاستعجال طلب قائد الحكومة اجتماعا استثنائيا لمستشاري الأمة بحضور كل أعضاء حكومته وسارع لاعتلاء المنصة وبنبرة اختلط فيها الحزم بالحزن قال مخاطبا الجميع :" أعزائي الوزراء والوزيرات ... أعزائي المستشارين والمستشارات حضوركم المكثف اليوم دليل على وطنيتكم الرائعة ... جئت هنا لأنقل لكم معاناة مستشار عظيم ابن الشعب لن أبالغ إذا قلت إنه أعظم مستشار عرفته ديمقراطيتنا .. دخل القبة شابا يافعا وهو الآن في أرذل العمر ولا زال متواجدا بيننا يفوز بنفس المقعد دورة بعد دورة... كيف يفوز ؟ سبحان الله ... إنك تضع سرك في أضعف خلقك.

ناضل سي بولحناك كثيرا ونام طويلا على نفس الكرسي الوثير الذي تجلسون عليه غير أن مؤخرته الطاهرة استأنست بالمقعد فأصيبت بمرض غريب أطلق عليه الأطباء "داء المؤخرة المنتشرة" إنه مرض مزمن خبيث يصيب نسبة كبيرة من المستشارين الذين تجبرهم وطنيتهم على المكوث طويلا هنا..

أيها الحضور الكريم... يؤسفني أن أخبركم بأن انتشار المؤخرة انتشارا غريبا يعد من بين أخطر أعراض هذا المرض الخبيث .

أيها السادة والسيدات حاولت في عجالة أن أقربكم من معاناة المستشار المناضل " سي بولحناك " أخيرا أتمنى أن ننكب جميعا لإيجاد حلول ناجعة لإخراج هذا المستشار الوطني من أزمته وتجنيب مجلسكم من انتشار هذه العدوى التي قد تقضي على أمل التقدم الذي يراه الشعب في عملكم الدؤوب والسهر على مصالحه ولي اليقين الثابت أنكم ستجدون حلا ناجعا لهذه الأزمة التي حلت ببلادنا وأخبركم وأنا كلي حزن أن "السي- بولحناك" لم يعد يعثر على "ليكوش " حسب مقاس دائرة مؤخرته .. أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم والسلام عليكم."

أدخلت كلمة قائد الحكومة كل الوزراء والمستشارين في صمت غير معهود وما هي إلا لحظات حتى عجت القبة بالضجيج حينما وقفوا جميعهم يتلمسون بأديهم مؤخراتهم وزاد قلقهم حينما اكتشفوا أنها كبرت فعلا وبدأت تنتشر- وأحسوا بأن العدوى لا محالة زاحفة نحوهم وسارعوا للمطالبة باستصدار مجموعة من القوانين تحمي مؤخراتهم على رأسها تكليف مختبر أمريكي للبحث عن لقاح فعال لهذا الداء الفتاك وتخصيص معاش لكل المستشارين أطلقوا عليه اسم " معاش المؤخرة المناضلة" .

نجمة الضابط

والمدينة تستعد لاستقبال الوفود الأجنبية المشاركة في مؤتمر التنمية الاجتماعية :" ألفية الخيار الانساني " أحدث المسؤولون خلية اطلقوا عليها اسم "مدينة بدون مشردين"

كان الضابط أشرف يشرف على الخلية الجديدة .... أشرف ضابط شاب حصل على ترقية استثنائية منذ شهرين وأصبح يحمل على قميصه الرسمي نجمة صغيرة ذهبية اللون فكبر فيه الطموح واستأثرت به أحلام اليقظة فكان يرى النجمة الصغيرة وقد تحولت إلى نجمتين كبيرتين توشحان كتفيه العريضين ... لم يكن اشرف يدخر جهدا في سبيل الظفر بالنجمتين الكبيرتين ،كان يخرج مع موكب الخلية المحدثة للقيام بدوريات ليلية....

كانت تتكون كل دورية من سيارتي شرطة و شاحنة لجمع الأزبال تنطلق مباشرة بعد صلاة العشاء من المركز لتجوب الشوارع والساحات والحدائق القريبة من الفنادق الفخمة والمطاعم المصنفة واقتصرت مهمتها على جمع المشردين وتكديسهم في شاحنة الأزبال وترحيلهم إلى خارج المدينة وجمعهم في اصطبلات أنشئت خصيصا لهذا الغرض حتى ينتهي المؤتمر وتخلو المدينة من الأجانب .

رغم حداثته في سلك الشرطة حذق أشرف لعبة المطاردة وتميز بحدسه غير العادي في اكتشاف أماكن اختفاء المجرمين واللصوص وغيرهم من الشاذين

الذين يتهمونهم بإفساد الأمن و الأمـان . قـرر في تلـك الليلـة أن يقـود الدوريـة إلى حديقة البنـك المركـزي ..حديقـة شاسـعة تجلـب الكثـير مـن الـزوار نهـارا ويـأوي إليها المشردون ليلا أراد أن ينصب كمينا يمكنـه مـن جمـع أكـبر عـدد مـن المشرـدين لكنه وقبل أن تلج الدوريـة بـاب الحديقـة لمـح مشرـدا وقـد اسـتلقى عـلى العشـب قرب كرسي خشبي طلبا للنوم فأمر السـائق بالتوجـه نحـوه والتوقـف بـالقرب منـه ... نزل الضـابط أشرف مـن السـيارة وفـورة الغضـب تتقـاطر مـن حذائـه الغلـيظ ،اقـترب منـه وأيقظـه بعنـف وهـو يضرـبه بـرأس حذائـه المرعـب ثـم انهـال عليـه بالسب والشتم متهما إياه بأنه سبب كل مصائب البشرية وفساد المدينة ...

صب أشرف كل جام غضبه عـلى الشـيخ المشرـد وأمـر رجـلي الشرـطة بـأن يوقفـوه عـلى رجليـه ويلقـوا بـه في شـاحنة الأزبـال حيـث تـتراكم الأجسـاد المنهكـة. لم يفهـم المشرـد مـا يحـدث حولـه لكنـه تمالـك نفسـه وقبـل أن يرفـع رجلـه ليلقـي بجسـده في شـاحنة الأزبـال حـدق في لبـاس الضـابط وانتبـه الى النجمـة الذهبيـة الصغيرة التي تزين كتفه فابتسـم وقـال لـه بهـدوء صـوفي :" أيهـا الضـابط الشـاب أنـت لا تملـك إلا نجمـة واحـدة لكـن أيقظتنـي بعنـف ،شـتمتني وضربتنـي ارفـع عينيك إلى السماء ...أنظر إلى السـماء ..كـم نجمـة توجـد هنـاك ؟ لا يمكـن أن تعـد النجوم هي كثيرة جدا ...الله هو مـن يملـك كـل تلـك النجـوم التـي تـرى بعضـها ولا ترى أغلبها ... الله مالك كـل النجـوم لم يـوقظني يومـا بعنـف ولم يشـتمني و لم

في العشر- الأواخر من رمضان قرر أن يجتهد أكثر... لم يعد ينام إلا قليلا في المقابل كان يستغل وقت تواجده بمكتبه فيغلق عليه الباب ويستسلم لنوم عميق يستمر أحيانا إلى آخر دقيقة قبل أن يغادر مصلحة محاربة الغش أين يقوم بمراقبة تقارير الغش التي تتقاطر يوميا على المصلحة خلال شهر الصيام .... حينما يستيقظ من نومه يتوضأ بالماء المعدني ثم يغادر المصلحة إلى بيته وبمجرد ما يصل يلبس عباءته الناصعة البياض ويضع على رأسه عمامة صفراء وكان شديد الحرص على ألا يخفي علامة السجود البارزة على جبهته .

حين عودته من عمله لم يكن يأخذ قسطا من الراحة في بيته لأن طاقته كانت تتجدد نتيجة نومه الثقيل بمكتبه لهذا كان لا يتوانى عن تلبية صوت المؤذن وهو يدعو المؤمنين إلى صلاة العصر- فيتوجه الى المسجد ويحرص على تأدية صلاته في خشوع تام كما لم يكن ينسى أن يرفع يديه نحو السقف داعيا الله أن يمتعه بالرزق والصحة وأن يصلح حال المسلمين وينصرهم على القوم الظالمين من النصارى و اليهود.

حافظ السي عبد الغفور على نفس النظام وحرص على أن تسير كل أيام رمضان على نفس النسق صلاة وقيام ونوم بمكتب مصلحة محاربة الغش واستغفار ... كان يبذل جهدا أكبر خلال العشر- الأواخر لأن شعورا غريبا راوده تلك الأيام

كان ينتظر رسالة إلاهية تبشره برضى الله عليه ... كان يترقب تلك الإشارة بشغف كبير وإيمان قوي.

كعادته بعد الإفطار أتجه الى المسجد ليصلي صلاة العشاء ويقتنص أجر التراويح ولزيادة الأجر كان سي عبد الغفور يغير مكان صلاته بعد كل تسليمة إلى أن بسط سجادته في ركن لا يصله نور كثير ودخل في خشوع نادر يستمتع بالصوت الشجي للإمام وهو يتلو القرآن فجأة غاب عنه خشوعه عندما لفت انتباهه نور أزرق خافت يسطع من تحت سجادته...كان النور يظهر كلما لمست جبهته الطرف الأعلى من السجادة فكان يطيل السجود ليتأكد من حقيقة تواجد ذلك النور الأخاذ إلى أن انشرحت أسارير وجهه وأحس بفرح يغمر قلبه الواجف من شدة الإيمان وقال في نفسه:" سبحانك يا رب ما أجمل نورك... شكرا لك يا إلاهي لقد بينت لي البرهان على رضاك علي ..شكرا لك على قبس نورك الذي شملني.. أحمدك يا ربي على كل نعمك ..."

لم يستطع سي عبد الغفور أن يحول دون نزول دموع الفرح و الخشوع على خديه وسلم مع الإمام واستعجل خروجه من المسجد مهرولا ليبشر زوجته ببرهان رضى الله عليه وهو في الطريق إلى بيته ضرب بيديه على جيوب عباءته يتحسس هاتفه النقال الذي أهداه له أحد تجار اللحوم الفاسدة ..عبثا تحسس كل جسده لم يجد أثرا لهاتفه فوقف برهة من الوقت يحفز ذاكرته لعلها تساعده على إيجاده إلى أن أكدت له أنه وضعه تحت سجادته أثناء الصلاة فرفع عباءته إلى ركبتيه

وعاد جريا إلى المسجد ترك بلغته أمام البوابة الكبيرة وتسلل بين الجمع الغفير إلى أن وصل إلى الركن المظلم فلم يجد السجادة كما لم يجد أثرا لهاتفه ... خرج سي عبد الغفور محبطا منكسرا ... أدرك أن الله لم يغمره بقبس من نوره وإنما غمره هاتفه السامسونغ بقبسات ضوئية كورية الصنع من تحت سجادة صينية الصنع....

يا لها من جمعة !!!

مر على موعد الصلاة أكثر من عشر- دقائق كانت بطيئة ثقيلة محملة بالقلق والمخاوف وكيف لا ؟ واليوم هو أفضل أيام الله ففيه خلق آدم وفيه قبض وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها، وفيه النفخة، وفيه الصعقة ...كانت رقاب الحاضرين معلقة نحو الساعة الكبيرة الموضوعة أعلى المحراب وكانت حركات عقاربها تمارس عليهم عنفا نفسيا وتحفز فيهم رغبة ممارسة حقهم في اللغو لكن نحنحة المؤذن أمام الميكرو أشعرتهم أن معناتهم على وشك الانتهاء فتريثوا ومالوا بآذانهم نحو مصدر الصوت :" أيها المؤمنون الإمام يتأسف عن تعذر حضوره اليوم ...الإمام مريض ويقول لكم اختاروا من بينكم أعلمكم وأفقهكم في دينكم ليخطب فيكم ويصلي بكم ... اللهم اني قد بلغت "

ضج المسجد وارتفع صوت النساء المتواريات خلف الحجاب الاسمنتي السميك وأسمعن الرجال احتجاجهن ورفضهن الخروج من المسجد بدون أجر يوم الجمعة ... تدخل المؤذن ليهدئ الرجال و النساء و الأطفال ردد حديث " ومن لغا فلا جمعة له" عدة مرات لكن الجميع كانوا يطالبون بأجورهم كاملة حتى أولئك الذين كانوا يحاصرون مدخل ومحيط المسجد بعاهاتهم الجسدية والعقلية وعرباتهم المجرورة بالحمير أو بمحركات صينية. بعد فشل المؤذن في إسماع صوته قام رجل من بين الحضور وقال بصوت

حاسم:" أيها المصلون أجوركم لم تضع بعد لأن الملائكة لم تغادر بعد المسجد ولكن أمامنا وقتا قصيرا علينا أن نجد حلا لهذه المصيبة التي ألمت بنا لعلها ابتلاء من الله .. علينا أن نختار أخيرنا علما وفقها ليخطب فينا ويصلي بنا كما أوصى بذلك إمامنا الفاضل ...الله يشافيه و يعافيه."

بمجرد ما انهى الرجل كلامه دارت كل العيون نحو " السي- المنور" السي لمنور استاذ لغة عربية حديث العهد بالتقاعد تعود أن يجلس في الصف الأخير راكنا ظهره إلى الحائط ليلتمس من زليجه المزخرف برودة في فصل صيف حارق.. أحس بالحرج ولكنه لم يستطع التخلص من إلحاح الحاضرين وأدرك ان سعادتهم الروحية لن تكتمل اليوم إلا إذا خطب فيهم وصلى بهم ولم يكن أمامه إلا أن يرضخ لمطلبهم بعد أن رفعوا أيديهم نحو السماء يدعون له بالشفاء من كل علله.

تقدم السي- المنور نحو الصف الأول إلى أن شد بيديه على المنبر وصعد درجه بهدوء امتزج فيه الخوف من الوقوع بنوع من الخشوع الصوفي ... لم يلتفت إلى الصولجان بل اقترب من الميكرو ونحنح نحنحات خفيفة ... كانت كل الرقاب قد فارقت عقارب الساعة وشخصت كل الأبصار تنتظر ماذا سيقول لهم هذا الخطيب الغريب الذي لا يضع عمامة ولا يلبس جلبابا بل يرتدي سروال جينز اقترب الخطيب الغريب أكثر من الميكرو وسط ترقب قلق فقال "السلام عليكم أيها المؤمنون .. أولا أبشركم بأن أجوركم مضمونة تضمنها كل المواثيق الكونية

والربانية كما يضمنها إيمانكم وحرصكم على أداء صلاة خالصة للتقرب من الله " ثم أردف قائلا :" أيها المؤمنون الخالصون اليوم لغوكم مقبول لا ينقص من جمعتكم شيئا لأنكم رفعتم اصواتكم مطالبين بحقكم ... طوبى لإيمانكم لو طعمتموه بالعقل سترقى درجاتكم عند الله لأن الإيمان يدرك بالقلب والعقل معا والعبادة تمارس بهما معا فلا تظنوا بعد اليوم أن الملائكة ستتخلى عنكم ولا ترفع أسماءكم إلى الله ... اهتموا بحياتكم وخذوا نصيبكم من متعها لأن الله صنع الحياة جميلة وثمينة واهتموا بالعلم و العمل وتربية أبنائكم على حب الحياة و الآن أترك لكم فسحة لتطلبوا من الله أن يساعدكم على التفاني في مزاولة أعمالكم اليومية وتربية أبنائكم" ...

جلس السي- لمنور ليفصل بين الخطبتين ثم وقف وهو يستند هذه المرة على الصولجان وقال لهم :" السلام عليكم... أيها المؤمنون الصادقون لا تخافوا وإنما اقتنعوا وافهموا دينكم بعقولكم ... في هذا الكون يوجد نوران ..نور الله الذي يصفي قلوبنا من الشوائب ويقودنا نحو حب الآخر مهما كانت عقيدته ونور العقل ... هذا النور أودعه الله فينا علينا فقط أن نوقظه لينير حياتنا ويرقى بنا إلى صف الإنسانية بقيمها الكونية السامية ولن يوقظ نور العقل إلا بالعلم والمعرفة ...أقول قولي هذا وأبشركم بتمام أجوركم وأقم الصلاة".

نزل السي- لمنور من على المنبر وقف أمام المحراب ينتظر إقامة الصلاة لكن

التوحيمة

بمجرد ما لاحت أمام عينيه الحادتين طلائع العربات المحملة بفواكه ،أنضجتها حرارة فصل ربيعي لا يستسيغ الاعتدال ،حتى شمر على ساعديه يكد و يجهد نفسه لأداء صلوات الفروض و النوافل ،أحيانا في الجماعة و أحيانا أخرى منفردا بالزاوية المظلمة للغرفة الوحيدة التي يتقاسمها مع والديه و إخوته الأربعة بحي "الريكار".

أثار انتباه القاطنين و بادلوه ابتسامات امتزج فيها الغبن بالأحلام الموؤودة... قال له فقيه المسجد المطل على مجاري الصرف الصحي :" يا حسن...ما تقوم به جيد احرص على متابعته و لكن ..لازلت صغيرا لا ترهق نفسك بقيام الليل...لا تنس .. قليل متواصل خير من كثير منقطع ! !"

بات حسن بسلوكه التعبدي لغزا في حي "الريكار" لم يطلع أحدا على مشروعه الذي يعتبر جزء من أحلامه التي أجلها الفقر إلى أجل غير مسمى ...منذ ولادته انتبهت أمه إلى " التوحيمة" التي رسمها الله على صدره ، كانت كلما أتيحت لها الفرصة تعيد على جاراتها يوميات حملها و كيف أنها اشتهت "حب الملوك" لكن "قدور" المياوم لم يكن باستطاعته توفير الفاكهة الشهية الغالية و بقدر ما تألمت بقدر ما كانت تشعر بشيء من الافتخار .كانت تردد أمام مسامع حسن:" ...على الأقل المرأة يجب أن تتوحم على الأشياء الجميلة

الغالية... أنا لم أتوحم أبدا على الفاخر أو الصابون أو التراب...أبنائي الخمسة ...كل واحد منهم رسم الله على جسده فاكهة شهية غالية الثمن.."

أدرك حسن جيدا معاناة أمه و عرف أنه يحمل على جسده حلمها المعدوم ... كرزة واحدة كانت ستغير أشياء كثيرة ، ربما كانت ستغير العالم في عينيها.. ربما كانت ستغير الحياة بكاملها ... لم يمل أبدا من النظر إلى حلم أمه يلمسه بيده ، يتذوق أصابعه لكنها كانت فاشلة على حمل مذاق " حب الملوك" إلى فمه...

بعد صلاة فجر يوم احتد فيه الحديث بين القاطنين على عزم السلطات هدم المسجد اقترب من الفقيه بعينين أجهدهما التعب فقال له:" سيدي الفقيه، لدي سؤال . " نظر إليه بعينين فضوليتين و اقترب بأذنيه من فمه منتظرا ما سيسمعه من حسن:" سيدي الفقيه أكون قد جمعت حسنات كثيرة ..أليس كذلك ؟...أصلي في الوقت ..أنهض للفجر و لا أنسى النوافل...أكيد أكون قد جمعت حسنات كثيرة ! "

استمع الفقيه بكثير من الاستغراب و قال :" نعم أكيد...و لكن العلم عند الله.." استعجل حسن طرح طلبه الملح فقال:" سيدي الفقيه ...أريد أن أقايض الله." باستغراب قال له الفقيه:" كيف ؟ تقايض الله!...و في ماذا ؟ " علت وجه حسن ابتسامة خرجت من أحشائه و أجاب على الفور :" أريد أن أقايض بحسناتي كرزا أحمرا! يأخذ الله مني كل حسناتي و يعطيني

كرزا...لاشك أن كرز الله أجمل من كرز الإنسان...مقابل كل حسناتي أريد أن يمنحني الله سبع كرزات.. فقط "

أمام اندهاش الفقيه عرى حسن على جزء من صدره أظهر الكرزة الحمراء المرسومة عليه قص كل تفاصيل يوميات الوحم المتعبة التي مرت بها أمه و استرسل قائلا :" سيدي الفقيه...أريد سبع كرزات فقط...أوزعها على إخوتي الأربعة .. أمنح أمي واحدة و أبي واحدة ...و أضع في فمي واحدة ...ستفرح أمي كثيرا ...لاشك أن الله سيقبل مني هذه المقايضة ؟ "

في صباح اليوم الموالي و بينما حسن يقترب من المسجد لصلاة الفجر ومقايضة الله لفت انتباهه ضجيج القاطنين و هم يحاولون منع جرافات المخزن من هدم المسجد.

الوافدة الصامتة

فشلنا في ثوراتنا الاجتماعية لأننا لم نعترف بعد بجدوى التربية الجنسية....لقد آن الأوان.

الدخول إلى حي "اللمبا" بعد غروب الشمس مغامرة حقيقية لأن الظلام يفرض عنفه...بحي "اللمبا" أضحت الشموع عملة التبادل اليومي عوض الدرهم وبجانبه الشرقي استقرت " الخربة" ، منزل طيني مهجور يتحول نهارا إلى فضاء للعب الأطفال أما ليلا فيمسي ملكا للمخمورين و المحششين.

في صباح يوم أغبر دخلت الحي وافدة جديدة استقرت "بالخربة" فأشتعل فتيل الرغبة في الأجساد العطاش.. وقت الظهيرة و الشمس حارقة مارس المراهقون أمام أنظار الأطفال شبقا متكررا عنيفا على الوافدة الصامتة ... كان الغروب إيذانا بانسحاب كل الأطفال و المراهقين ليَخْلُوَ المكان للمخمورين والمحششين .. كانوا يحملون معهم شموعهم و كؤوسهم لقضاء ليلة حمراء تدور فيها كؤوس الخمر و لفائف الحشيش و الجنس الكثيف .

بعد أن لعبت الخمر بعقليهما قال "بوشلاغم" لنديمه:" من أين أتت هذه الجميلة ؟...لقد فتنتني بعينيها..لازالت صغيرة ..أتظن أنها قادرة على الحمل ؟ يجب أن نحتاط...." سرعان ما غابت الحيطة و تداول عليها كل المخمورين والمحششين إلى أن أنهكهم الخمر و الجنس والتعب فاتجهت الوافدة الصامتة إلى ركن من أركان الخربة و خلدت إلى نوم شقي...

استبد العشق بالجميع و استمر اسبوعا كاملا إلى أن أصابها الهزال و ذبل بريق عينيها....في اليوم الثامن ضج الحي من جديد و اعترض الأطفال و المراهقون و المخمورون و المحششون طريق رجل غريب كان يجر الوافدة الصامتة بعد أن لف على عنقها حبلا . وقف أمامه " بوشلاغم" و بنبرة غاضبة صاح في وجهه:" أين أنت ذاهب بها ؟ إنها لنا ...ألفناها و ألفتنا.." فرد الغريب قائلا :" هذه الجحشة ملكي ..منذ أن تاهت عن الإصطبل رفضت أمها أن تجر العربة ...فضاع رزقي ...أرجوكم أتركوني أعود بالجحشة إلى أمها." على مضض انفض جزء من الجمع تاركا مسلكا ضيقا مر عبره الرجل الغريب فقاد الجحشة خارج الحي تاركا الرغبات الجنسية معلقة إلى حين وصول وافدة جديدة قد تدخل " الخربة" يوم ما.

الرجل الخطير

تجاوز الثلاثين بسنتين أو أكثر لم يعد بحاجة إلى تذكر سنة ميلاده ، تخرج من جامعة مدينته الواقعة بين الفراغ و النسيان ، أعياه البحث عن عمل و انتهى به المطاف إلى تعليق أحلامه على حبل غسيل فاحترقت كلها تحت لهيب شمس الانتظار .

عاش عبد الشكور ردحا من الزمن يتنقل بين تنسيقيات المعطلين يردد مع المرددين " العمل حق دستوري " لكنه كان دوما يرمق بعينين غاضبتين انسحاب الزعماء في غفلة من الآخرين الواحد تلو الآخر فقر قراره على أن ينسحب هو الآخر نحو نفسه ..هناك جمع حوله ثلة من المقصيين ، كل أولئك الذين تكسرت عظامهم تحت ثقل العصي- والهراوات و أتقن كغيرة من المقصيين هواية الحكي يكتب عن يوميات حياة لا مذاق لها ، سرعان ما انفض من حوله الكثيرون فعزم ذات صباح أن يكون شاعرا يتيه بين الانزياحات و الأوزان يكتب أسطرا مبعثرة حينا و ثائرة أحيانا أخرى عن الحب و السياسة و العصيان لكنه وجد نفسه يستجدي "لايكات" منفية...

قرر عبد الشكور أن يهجر القصة و الشعر و " اللايكات" و كل المقصيين الزرق ، ليلتحق بالشارع يوزع على المارة أحلاما ملتهبة بنيران شمس حارقة....على غير العادة خرج ذلك الصباح مبكرا وهو يتأبط كومة من الأوراق البيضاء و يدحرج قلمه بين أصابعه كبهلوان سيرك قديم. في الجانب

الآخر من الطريق كان رجلا مخابرات يراقبان أوراقه و يتابعان خطواته و بحصيان نظراته و ابتساماته ويحاولان فك شفرة مداعبته لقلمه المنكسر- يقدمان تقارير استعجالية لا ينتظران إلا الأوامر لإلقاء القبض على الرجل الخطير.

وأنا أرسم في مخيلتي كل طقوس الاحتفال بسان فالنتان بعيدا عن البيت اقتربت مني " حليمة" و قالت :" السي- احمد ..أسي احمد ! ..لدي سؤال يزعجني ! " قلت لها :" تفضلي زوجتي العزيزة ..أنا أسمعك " قالت :" زوجي العزيز ..هل صلاة عيد الحب خاصة بالرجال أم مفروضة على النساء أيضا ؟" أخفيت ابتسامة ماكرة وأفهمتها أن هذه الصلاة خاصة بالرجال فقط من أداها بارك الله في حبه وقوى علاقته بزوجته و من تخلى عنها ينال عقابا في الدنيا قبل الآخرة ...

خيم صمت مريب علينا لكن حليمة سرعان ما كسرته حين قالت لي :" أسي احمد ...هل تؤدون صلاة عيد الحب وقوفا أم ركوعا وسجودا ؟" استدرت نحوها بعد أن وضعت هاتفي الذكي جانبا ونظرت في عينيها الشاردتين و قلت لها :" يا زوجتي العزيزة ...مراسيم صلاة عيد الحب تبدأ بخطبة الحب فالصلاة وقوفا ثم التوجه إلى زاوية الشيخ سيدي فالونتان لإحياء ليلة الحب مع المريدين...إحياء هذه الليلة يا حبيبتي شرط أساسي ليعم الحب بيتنا خاصة و أن الشيخ سيدي فالنتان يغمرنا بالدعاء الوفير المبارك.."

لتفادي المزيد من أسئلتها الحرجة أمرتها بأن تحضر- نفسها لأذهب بها إلى منزل أبيها لتقضي- الليلة هناك و لم أنس أن أذكرها بعدم إفشاء سرنا لأفراد أسرتها عملا بقول رسولنا الكريم ": استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان"

كانت الظنون تفرض ثقلها على "حليمة" و لم تستطع أن تخفي مخاوفها فأردت أن أقطع الشك باليقين و سألتها بلهجة واثقة :" ما بك ياحبيبتي ؟؟ ألا تريدين أن تشملنا بركة الشيخ سيدي فالنتان ؟؟ أتريدين أن أنال عقاب الدنيا قبل الآخرة ؟؟ " بشفتين مرتجفتين ردت على الفور و صاحت :" بركاتك سيدي فالنتان !!! طبعا لا أريد لك أي عقاب !! " ثم استطردت قائلة " حبيبي،نحن بحاجة إلى كرمات شيخنا، لكن يا حبيبي صدفة عرفت رقم سر هاتفك الذكي وقرأت رسالة أقلقتني و أدخلت علي بعض الظنون .وجدت رسالة من امرأة اسمها " حنان " تستعجل قدوم عيد الحب لتقضي معك سهرة حب خاصة وتطلب منك أن تستقدم معك علبة شكولاطة رفيعة و وردا جميلا و قنينة شامبانيا فرنسية "

تمالكت نفسي، ابتسمت في وجهها و قلت لها :"هاتفي لم يعد ذكيا لقد تحول إلى شيطان رجيم يريد أن يوقع بيننا !! " قبلت جبهتها واسترسلت في الكلام محاولا أن أقنعها بأن تطرد أشباح الشك والظنون عن عشنا وحبنا و بنبرة هادئة همست في أذنها :" رسائل كثيرة يا حبيبتي تصلني عن طريق الخطأ لا أعرف مصدرها ... لا يجب أن تشكي في حبي لك حتى لا نغضب الشيخ سيدي فالنتان "

طرق الباب ، ثم استأذن و دخل المكتب ، و جد نفسه أمام رجل ذي كتلة جسدية ضخمة تظهر عليه نعمة الراحة و الإفراط في الأكل ، سلم لكنه لم يسمع الرد فاقتحم الصمت المفروض و قال بصوت خجول :" سيدي... من فضلك أريد أن تسلمني شهادة حسن السيرة...أنا بأمس الحاجة إليها...من أجل تكوين ملف وظيفة...المسؤولون ينتظرون أن أسلمهم ملفي اليوم....أرجوك سيدي ...الله يعطيك حجة..."

لم يعره الرجل أي انتباه فقرر أن يكسر شيئا من جدار الصمت المهين و بقليل من الإصرار قال: " : سيدي ...من فضلك أريد أن تسلمني شهادة حسن السيرة...أنا بأمس ..." بعنف مسموع أغلق الموظف كتابا متوسط الحجم كان بين يديه و صرخ في وجه الشاب :" ألا ترى بأنني أعيش لحظة خشوع تام مع كتاب الله !؟...أتدبر آياته....ألا ترى أنني منهمك في إتمام وردي الصباحي !؟... أنا جد متعب .. لم أنم إلا قليلا .. أقيم الليل.. أنفل كثيرا ..و آتي في الصباح إلى المكتب للعمل....ألا ترى كل هذا الذي أقوم به في سبيل الله !؟ " و في حالة

تشبه الهيستيريا استطرد الموظف صائحا :" لماذا لا ترخص لنا هذه الحكومة بالعمل فقط بعد الظهر!؟ ألا يقولون إنها حكومة إسلامية !؟ وا عمراه ! وا معتصماه وا إسلاماه! ! ! "

أنهى الموظف هذيانه ثم نظر إلى الشاب نظرة امتزج فيها الغضب والازدراء و قليل من الشفقة وقال له ملوحا بالقرآن في الفضاء :" يا ولدي.. إن حسن السيرة لا تثبتها أوراق الدار الفانية...حسن سيرتك يشهد عليها هذا الكتاب العظيم ... يا ولدي يوم القيامة سيكون للقرآن لسان ...لن تحتاج إلى أية شهادة من أي مكتب... القرآن هو من سيمنحك مفاتيح دخولك إلى وطنك الأصلي .. إلى جنة الخلد ...الوظيفة !؟ ..لا قيمة لها أمام ما ينتظرنا هناك.. "

بعينين دامعتين اقترب الشاب من الموظف قبل يده و القرآن بخشوع صوفي ملتمسا منه فائضا من الأعذار حينها و ضع الموظف قرآنه على يمينه و ناوله الورقة بشماله دون أن ينظر إليه ... تناولها الشاب برفق وخرج من المكتب و دموعه تنعكس عليها أشعة شمس جميلة ولم يمنع شفتيه من أن ترسما ابتسامة ارتياح و هي تردد : "أخيرا نلتها ..أخيرا نلتها...أخيرا موعدي مع جنتي قد حان.. "

زمرة اليساريين

إلى كل أولئك الذين يحصون سكنات و حركات رجال التعليم

عاد سي علال إلى البيت في حالة غضب فائر ، حاولت زوجته للا علالة أن تطفئ جذوة غضبه و لكن محاولتها فشلت.. كان يقطع فناء البيت طولا وعرضا ،ينظر إلى ساعته باستمرار ممل كمهووس يريد أن يسابق الزمن ...لم يرفع عينيه عن تتبع حركة عقارب الساعة إلا حينما سمع قرعا على الباب فهرول لفتح فمه و صاح في وجه ابنه سمير :" لقد استدعاني مدير ثانويتك ....كنت هذا الصباح عنده ...هناك داخل مكتبه و أطلعني على سجل غيابك..يا للهول !...مصيبة حقيقية سقطت على رأسي"...!

التزم سمير - "الشطبة" كما يحلو لأبناء الحي أن ينادوه -الصمت كان متعودا على مثل هذه المشاهد...في هذه اللحظة تذكر مشهد" أبي يكتشف أنني أدخن " فمشهد " أمي تجد قطعة من الشيرا في جيب سروالي" و مشهد " أبي لا تعجبه نتائجي " هي مشاهد كثيرة مرت

أمام عينيه كمشاهد درامية لمسلسلات هندية و تركية تربى بين أحضانها ، لكنه أحس هذه المرة أن الأمر خطير و جد مختلف.

أشفقت للا علالة على زوجها سي علال بعد أن غلبه العرق المتصبب من كل جسده و زادت مخاوفها حينما وضع يده على قلبه و تغيرت ملامح وجهه معلنة

عن إحساس عميق بـالألم و التعـب لكنـه تجلـد و استجمع مـا بقـي لـه مـن قـوة و قال لابنه :" لقد صـفحت عنـك عنـدما اكتشـفت أنـك تـدخن .. صـفحت عنـك عندما تناولت الحشـيش .. صـفحت عنـك لمـا أهملـت دروسـك ..صـفحت عنـك كثـــيرا ...كثـــيرا ...الآن ارتكبـــت جرمـــا لا يغتفـــر ..لا يغتفـــر "... رفـع "الشـطبة " بصرـه نحـو وجـه أبيـه المتعـب باحثـا عـن نهايـة لهـذا المشـهد الدرامي الذي فاق كـل التوقعـات ، قـال لأبيـه بعـد أن أنـزل عينيـه إلى الأرض :" لم أفعـل جرمـا كبـيرا يـا أبي ...لقـد تغيبـت أسـبوعا واحـدا فقـط ..كـل التلاميـذ يتغيبـــون ...بـــل ..حتـــى الأســـاتذة يتغيبـــون أحيانـــا"... بعينـين بـاكيتين ضـم الأب ابنـه إلى صـدره و قـال لـه": دخـن السـجائر...تناول الشيرا... لا تهـتم بدروسـك ..كـل هـذا لا يغضـبني ولكـن مـا يغضـبني و يـؤلمني هو أن يكثر غيابـك و تصـبح يسـاريا...أرجوك يـا بنـي لا تتغيـب كـي لا تحشر في زمرة اليساريين".

شجرة التوت

شق التعب و الفقر تجاعيد غائرة على وجهه و برزت عروق عنقه و يديه فبدت منها دماؤه كأنها حمم بركان ساكن لا ينتظر إلا شرارة ليتدفق سيلا جارفا .. اعتاد " الجيلالي" كلما أنهى عمله أن يتكئ على جذع الشجرة الوحيدة التي لا زالت واقفة وسط حي " التوتة"... كانت ظلالها توقظ فيه الحنين إلى باديته التي هجرها منذ ثلاثين سنة ...لم و لن ينساها أبدا و لم ينسجم بعد مع أجواء المدينة الكبيرة ، كان يردد دوما بكثير من الاستغراب :"كم هي كثيرة أزبال أهل المدينة !...أزبالهم ملقاة في كل مكان !"

كان " الجيلالي" يحقد على الشمس أكثر من حقده على مدير شركة النظافة التي يعمل بها ... الشمس اللعينة أقسى من المدير اللعين ...الشمس ! لم تكن يوما رحيمة به كانت معاندة تدور معه عبر أزقة و شوارع الحي تتحول إلى مطارق تضرب رأسه و زنابير مؤذية تلسع جسده كلما انهمك في جمع الأزبال التي نثرها الناس هنا و هناك في هذا الركن و في ذاك المكان ..عزاؤه الوحيد كانت شجرة التوت التي تتوسط الحي كان يلوذ بظلالها، يضع رأسه على جدعها فتسري في جسده احساسات غريبة ، يشعر و كأن التوتة تمسح على ظهره برفق فيخف عنه التعب.

قبل غروب الشمس بدقائق كان يجر جسده عائدا إلى شقته الضيقة ضيق أنفاسه التي أتعبتها أنفاس سجائر من النوع الرخيص و مع مرور الأيام أصبح

يستعجل طلوع الفجر ليعود إلى عمله من أجل أن يلتقي بشجرة التوت ، لم يعد يكره الشمس و لم يعبأ بحرارة فصل الصيف الحارق .... كانت " التوتة" رفيقة به تمنحه الظل ، تهز أوراقها فينبعث منها نسيم خفيف بمذاق خدر لذيذ يسري عبر كل عروقه فيهدئ دماءها الفائرة .

مع أولى طلائع الخريف بدا " الجيلالي" قلقا و بدت عليه علامات حزن شاحب لأنه يدرك أن الخريف إيذان بالنهاية و سيكون على شجرة التوت أن تتخلى عن أوراقها مجبرة فلن يكون بوسعه أن ينعش جسده بنسائم أوراقها المعطاء و في لحظة يأس قاتل لامس جذعها بيديه و أسمعها دقات قلبه و قال لها :" قريبا سأفتقد نسائم أوراقك وظلك و دفء جذعك و إنسانيتك فمن سيحميني من عنف نفسي وقسوة مدير متعجرف ... من سيحميني من شمس خريف ماكر ؟ " انقضى الصيف و استمر " الجيلالي " يستعجل الفجر ليعود إلى عمله فيلتقي بشجرة التوت التي قررت أن تتحدى مكر الخريف و لا تتخلى عن أوراقها أبدا من أجله...

أنا تغيرت

قبل كل انتخاب كنت أحضر- نفسي- جيدا لليوم الموعود ...أتطلع على برامج الأحزاب ، كنت أجدها متشابهة و كأنها منسوخة من برنامج واحد لحزب مجهول ..في السنوات الأخيرة انتابني شك و كدت أجزم لنفسي- أن كل البرامج منقولة من مواقع تهتدي إليها الأحزاب من محرك البحث غوغل....كاد أن يتحول شكي إلى قناعة راسخة عندما عرفت أن جل الأحزاب كونت ميليشيات إلكترونية أطلقت على نفسها لقب الكتائب الإلكترونية ...الغريب أن الكثير من المصطلحات المستعملة في الحملات الانتخابية كانت تنتمي إلى الحقل الحربي و رويدا رويدا تحولت الحملات إلى نوع من الفتوحات الدينية التي تستعمل فيها كل الأسلحة...لقد أخافني الوضع و لكنني كنت دائما أخفف على نفسي- فأخاطبها:"إنهم يخوضون معركة ضارية من أجل فقراء الوطن...سيتحسن الوضع مع هذا المجلس الجماعي ...ستتغير المدينة و نتغير معها فتشرق الحياة سعادة في عيوننا ...سيتحسن الوطن مع هذه النخبة من البرلمانيين...سيراقبون الحكومة و سيشرعون قوانين في صالح الطبقات الفقيرة.."

كلما حان موعد الحسم الذي يصادف يوم الجمعة كنت أتوجه أولا إلى المسجد ...أسمع خطبة الجمعة ...كان الإمام يحثنا على التوجه إلى مراكز الانتخاب لأداء واجبنا الديني..كان يقول الإمام :" أداء الوجب الانتخابي بمثابة فرض

عين " كنت متأكد أن أغلبية المصلين لم يفهموا أبدا معنى فرض عين لكن الأيادي في آخر الخطبة كانت ترتفع إلى السماء و كنت ارفع يدي مع كل الايادي المرفوعة ...أطلب الله مع المصلين أن يغير البلاد و العباد...لكن...ظلت البلاد كما هي لم تتغير وظل العباد في مكانهم ينتظرون ...لازالوا ينتظرون الفراغ.....أنا تغيرت ...تغيرت كثيرا و مخافة اللغو كل جمعة قاطعت المسجد وخطب الإمام.... كنت اعتقد أنني أمارس واجبا وطنيا ودينيا...أساهم في اختيار نخبة من أبناء الوطن الحاملين مشروع القضاء على الفقر.. كانت النتائج تأتي عكس انتظاراتي و انتظارات الشعب .. كلما مارست واجبي كما مارسه الشعب ازدادت دائرة الفقر اتساعا...ارتفعت الجريمة ، قل العمل ، كثرت البطالة و انتشر الجهل..

أدركت إدراكا قويا أنني كنت أساهم في كل هذا الدمار الذي أصاب وطني....أدركت أنني كنت أمنح مفاتيح خزائن البلاد إلى أناس يزدادون ثراء مع كل ورقة انتخاب استقرت في قاع الصندوق.....ربما احتجت وقتا طويلا لأعرف و اكتشف ما اكتشفته ...ضاع وقت طويل غير أن الوطن رغم جراحه العميقة الكثيرة لا زال موجودا.. لازال واقفا ..انتابني إحساس عميق بسعادة غير محدودة لأنني قررت أن لا أكون ركنا من أركان الهزيمة..و لا أكون ركنا من أركان جريمة مقبلة...

عشاء الوداع الأخير

مات جاري فنصبت خيمة وسط الطريق و لم تمنع الاحتجاجات الصامتة لأصحاب السيارات من انهماك جمع غفير من النساء في تحضير وليمة الوداع الأخير.

بعد صلاة العشاء لم يحل البرد القارس دون تقاطر الرجال على الخيمة و أحاطوا بموائد دائرية كبيرة يستمعون في صمت كئيب لتلاوة آيات من الذكر الحكيم .... كان القرآن يتلى من طرف "الطلبة" بطريقة رتيبة مملة لا تدفع إلى الخشوع أو التدبر وكان الحاضرون ينتظرون بشغف توقفهم من لحظة إلى أخرى عن التلاوة لتضج الخيمة بالكلام عن كل شيء ،عن الثلوج التي ردمت القرى المعزولة وعن أسعار الخضر و البنزين و عن بسيمة و تعويم الدرهم و عن كرة القدم و حلم الأمة لكنهم قليلا ما كانوا يذكرون مناقب جارنا العزيز.

انشرحت أسارير وجوه "الطلبة" حينما لاحت لهم مراسيم التحضير لتقديم عشاء الوداع الأخير فأجمعوا على ختم الشوط الأول من التلاوة و بصوت شجي منغم لفت انتباه كل الحاضرين صاحوا :"صدق الله العظيم" و سرعان ما أبرقت عيونهم وارتفعت ضحكاتهم وكثرت غمزاتهم فزادت أسارير وجوههم انشراحا عندما شاهدوا طلائع الصحون تقترب من مدخل الخيمة تفوح منها رائحة اللحم والبرقوق ...أعدوا العدة ، استقاموا في جلستهم

شمروا على أيديهم و تحينوا لحظة سقوط الصحن على المائدة ليفترسوه كما تفترس الأسود طريدتها .

كنت جالسا على كرسي عبثت به كثرة الولائم إلى جانب تسعة أشخاص نحيط بمائدة دائرية وضعت قرب مدخل الخيمة.. لم أكن أعرف أحدا من جلسائي و لطرد هواجسي حتى أشعر بشيء من الاستئناس قلت لنفسي: " هؤلاء ليسوا غرباء ربما نحن جميعا نعرف الفقيد...أكيد .." لكن بمجرد ما استقر الصحن على مائدتنا أدركت أن اللحم والبرقوق هما سيؤنسان غربتنا وأحسست أننا اجتمعنا هنا وفي هذه المناسبة الأليمة من أجل أداء مهمة واحدة هي الأكل فقط و بعدها إن استطعنا إلى ذلك سبيلا الدعاء للجار العزيز بالرحمة و المغفرة.

قبل أن ينفض الجمع نظر إلي أحدهم و قال لي :" يستاهل سي عبد الغفور ...الله يرحمه " ثم نطق آخر :" موته جاء سهلا ..سعداتو " و استرسل آخر :" كل شي كلا ...كل شي شبع ...الله يرحمك يا سي عبد الغفور "

عن طريق الصدفة وجدت نفسي- مرشحا أعد العدة لدخول غمار الانتخابات حينما كانت المدينة مقسمة إلى ثلاث جماعات حضرية في الحقيقة كنت رافضا لبلقنة المدينة من طرف الداخلية حيث أصبحت وجدة يسير شؤونها ثلاثة رؤساء من داخل و خارج ثلاثة مجالس الغريب في الأمر أراها الآن بمجلس واحد ولم تستطع أن تبرح مكانها . لم أكن أتوفر من أدوات العمل الانتخابي إلا على بعض الملصقات و الإعلانات الورقية التي تحمل صورتي و اسمي و الحزب الذي بت أمثله " منظمة العمل الديمقراطي ".

كانت دائرتي الانتخابية تمتد على تخوم وادي إسلي و كانت الثكنة حيث تقطن أسر و عائلات القوات المساعدة تمثل رقما مهما في هذه المعادلة الانتخابية و منذ الوهلة الأولى تبين لي أن المرشح الذي يستطيع أن يخترق هذا الحصن المنيع لامحالة سينتصر- في الانتخابات و يضمن مقعده في مجلس سيدي ادريس القاضي.

كان علي أن أجوب المناطق الشاسعة الخالية بدائرتي الانتخابية لأقدم نفسي- للناخبين الذين قد ألتقي بهم بعد مشي- طويل وكان علي أن أشرح لهم أسباب تقدمي للانتخابات و أعرض عليهم الخطوط البارزة للبرنامج الحزبي الذي أصبحت أمثله وأدافع عنه بكل قوة و اقتناع و بين هذا و ذاك كنت أتحدث عن نضالات الديمقراطيين و الفكر التقدمي لكنني كنت أشعر أن كلامي يمر

بصعوبة فأدركت أن الكثير من الفلاحين لا يعرفون شيئا عن الحزب و لا يبدون أي اهتمام بالنضال ..كنت أجد نفسي- مضطرا لأتكلم كثيرا عن المشروع المجتمعي للحزب وعن النضال و التغيير و الالتزام ... كنت أشعر أنني أتحول إلى "غيفارا مغربي " يجوب الحقول و الضيعات ليلتقي بأفراد الشعب.

مرت حملتي الانتخابية بين النزول إلى الميدان و لقاء الناخبين الموزعين على مساحة شاسعة والرجوع إلى مقر الحزب لتقديم التقارير و مناقشة المشاكل التي تعترضنا و الحديث عن الإكراهات التي تواجهنا.. كان التحدي الكبير الذي رفعته هو أن أتمكن من الدخول إلى الثكنة و الاتصال بالناخبين لكن الثكنة كانت عصية ، كانت حصنا منيعا يأبى الفتح رغم أنني وصلت إلى "الكومندار" و جلست معه في مكتبه و شرحت له برنامجي الانتخابي .منحني ابتسامة كورتوازية و أقر لي أن الدخول إلى الثكنة ممنوع على أي كان ،سلمت أمري إلى كثير من الحظ و شيئ من الصدفة مع أنني كنت دوما أردد مقولتي :" رب صدفة ليست خيرا من ألف ميعاد " حل يوم الحسم و فتحت أبواب مراكز الانتخاب و تركت الناخبين لضميرهم بين اختيار الأسوأ أو اختيار الأحسن و طبيعي أن أرى أنني كنت أمثل الأحسن مادام أنني أمثل حزبا ديمقراطيا نزيها مناضلا و في نفس الوقت كنت أقاوم رغبة تدفعني إلى الوقوف بجانب مركز الانتخاب بثانوية إسلي لأتقصى- الأخبار و أجس نبض الناخبين مع مرور الوقت تغلبت الرغبة تغلبت وقبل أن يغلق مركز الانتخاب

أبوابه اتجهت إلى ثانوية إسلي لأنتظر خروج أخي الذي تكلف بمهمة مراقبة العملية داخل القاعة .

عندما خرج أخي تفحصت ملامح وجهه لعلي أظفر بعلامة ترشدني إلى معرفة النتيجة النهائية لكنه لم يبد أي شيء إلا ملامح تعب شديد علت وجهه و دون أن يطيل علي حالة الترقب والانتظار قال لي :"لن أعيد أبدا هذه التجربة ...عشت لحظات عصيبة هناك ..و اضطررت أن أتدخل مرات عديدة لأهدئ أعصاب المراقبين و فك تشابك الأيدي و الأرجل..." بعد صمت وجيز قال لي :" لم تفز في الانتخابات ..لقد حصلت على صوتين اثنين فقط".

اهتـدت "سـعيدة" إلى ارتـداء لبـاس فضـفاض تحمـي خلفـه سرا تـرفض أن ترمقه عيون تبحث دوما عن فضيحة جديـدة ، كـان عليهـا أن تقنـع الآخـرين بهـذا اللباس الجديد كانت تردد أمامهم:" لقـد التزمـت بالحجـاب الشرـعي عـن قناعـة و إيـمان " لكنهـا كلـما لمسـت بطنهـا ، انـتفخ فيهـا الرعـب الممتـزج بحركـة جسـم غريب ينمـو بعنـف في أحشـائها المبعثـرة ..كانـت تحس بالغثيـان كلـما اسـترجعت شريط مأساتها، حيـنما خرجـت ذات مسـاء مـاطر مـن عملهـا فـأرادت أن تختصر المسـافة و تـربح الوقـت لتصـل إلى الصـيدلية قبـل أن تغلـق أبوابهـا ، كـان أبوهـا بحاجة إلى " الرابوز" ليهـدئ مـن حـدة السـعال حتـى يـتمكن مـن إدخـال قليـل من الهواء إلى رئتيه الملتهبتين ، اختـارت أن تسـير عـلى الممـر وسـط الغابـة الصـغيرة لكنها وجدت نفسها بين يـدي شـابين نـال مـنهما الخمـر اقتاداهـا إلى الـركن الأشـد ظلمـة .. هنـاك ..تـداولا عـلى اغتصـابها مـرات عديـدة إلى أن لاح الصـباح ، تركاها قرب جدع شجرة منهكـة و حيـنما حاولـت الوقـوف أحسـت ببقايـا سـائل لزج ينزل من بين فخديها .

بتـوالي الشـهور حـذقت "سـعيدة " لعبـة إخفـاء الجسـم الغريـب السـاكن في بطنها لأنها لا تريـد أن تفقـد عملهـا بشرـكة الألبسـة الجـاهزة.. كانـت بحاجـة إلى راتبها الصغير لاقتناء الدواء لأبيها المصـاب بـالربو و تمـلأ الأفـواه الخمسـة الجائعـة ...و بقـدر مـا ارتفعـت في دواخلهـا حـدة العتـاب الممـزوج بـاللوم و الكراهيـة ،

ارتفعت فيها حدة تساؤلاتها المؤرقة :" من يكون أب هذا الذي يكيل لي ضربات عنيفة موجعة ؟ أهو المجنون الذي افتض بكارتي أم الشاب العنيف الذي قذف في أعماق جسدي سائلا ملعونا ؟ ألم يمتزج السائلان معا في رحمي ؟ يا إلاهي من هو هذا الجسم الغريب الذي يتحرك بعنف في أحشائي ؟"

أدركت أن موعد الوضع اقترب مع إحساسها بأوجاع المخاض و في يوم مظلم عاصف خرجت خلسة من بيت والديها و اتجهت نحو الغابة الصغيرة هناك على فرع شجرة ربطت حبلا ، شدته بقوة وعضت بكل أسنانها حتى النواجد على قطعة قماش و دفعت بكل عنفها الرافض بالجسم الغريب نحو الأسفل ... امتزج الدفع والعرق و الأنين بصوت الرعود المزمجرة إلى أن سال ماء و دم من بين فخديها فانزلق الجسد الصغير و لامس رأسه التراب المبلل بالدم و المطر...استجمعت كل قوتها ، تركت الحبل و جلست بجانب مولودها ، لامسته بيدها اليمنى ثم أنزلت يدها اليسرى على فمه الصغير لم تكن تعرف هل ولد ميتا أم حيا فقط أرادت أن تشبع رغبة جامحة تدفعها نحو كتم انفاسه .

أخرجت كيسا بلاستيكيا أسودا من تحت لباسها الفضفاض ، و هي تضع جثة الجسم الغريب في الكيس ، مرت أمام عينيها أشرطة سريعة قاسية : شريط اغتصابها من طرف الشابين المخمورين... شريط انتفاخ بطنها و ارتدائها اللباس الفضفاض... شريط شرائها للكيس البلاستيكي الأسود... رغم عنف الأشرطة أحست بارتياح عابر بعدما تمكنت من الوقوف على رجليها .

مسحت آثار الدم من على جسدها و قبل أن تخطو خطوتها الأولى نظرت إلى الكيس نظرة فارغة...أحست بدموعها و قد تحجرت وقر قرارها على رمي الجسم الغريب في أقرب حاوية قمامة بالمخرج الجنوبي للغابة بعيدا عن مسكن والديها و تنهدت بصوت مسموع :"هناك تكثر القطط و الكلاب الضالة و لا شك أنها ستلتهمه فتختفي كل معالم الجريمة ".

في الصباح الباكر تجمهر سكان الحي أمام حاوية القمامة يتابعون جلبة حركة رجال الشرطة و هم يحاصرون المكان و العميد يصرخ فيهم بغضب يتقاطر من عينيه المحتاجتين للمزيد من النوم :" كيف يقع هذا في دائرة نفوذي.. إنها مؤامرة ضدي... يجب أن تعثر الشرطة العلمية على بصمات صاحب الكيس الأسود...إنها مؤامرة ضدي.." من وراء زجاج سيارته و قبل أن ينصرف من مسرح الجريمة أعطى السيد العميد تعليماته الدقيقة و بنبرة صارمة صاح في رجاله :" ألقوا بالجسم الغريب في القمامة و دمروا الكيس البلاستيكي الأسود ، لا أريد أن يبقى له أي أثر.. وطننا في غنى عن أية أزمة حكومية جديدة ...نريد شيئا من الاستقرار لهذا الوطن الحبيب.." .

الأستاذ أديب قرنفل

كان الأستاذ أديب قرنفل يرى نفسه مثقفا مسؤولا لكنه كان يشعر أحيانا بإحباط شديد فيكتفي بتناول جرعة كبيرة من الأسف ...كثرت الجرعات و بعد جرعة و أخرى كان يصعد من أحشائه صوتا يسمع له أنينا :" ماذا عساي أن أفعل ....المجتمع قوي متجبر ...هو سلطة فوق السلطة....المجتمع سرق من الله عرشه و جلس عليه ...يقتل يحيي ...يدخل إلى الجنة من يشاء و يرمي في جهنم من يشاء .. يلقي إلى الجحيم بكل متمرد على طقوسه و أصنامه و اختلالاته و نزواته ..."

كان الأستاذ أديب قرنفل الرجل المسالم يرى أن الفضاء الأزرق هبة من الله الحقيقي المتربع على عرش الحب و التسامح و ليس الحقد و الكراهية ... بعد تقاعده الاضطراري زاد ارتباطه بحاسوبه أو نافذته المطلة على الخارج كان يجد متعة في عرض أفكاره للنقاش في مواقع التواصل الاجتماعي ، كان يدافع عن كل القيم الإنسانية السامية لكنه كان يجد نفسه أحيانا كثيرة يخوض معارك ضارية ضد الظلاميين أو خفافيش الظلام - كما يحلو له أن ينعتهم - فجأة قرر أن يغلق شاشة الحاسوب إلى الأبد لأنه أحس بالخوف و الفزع و اليأس و الهلع .. تحولت الكلمات التي قرأها أخر مرة على شاشة الكمبيوتر إلى خناجر قاتلة تطعن أنفاسه و تشتت أفكاره ، كانت الكلمات مرعبة تؤرق عينيه كلما أغمضهما و تطرد ابتسامة الأمل عن شفتيه :" أنت علماني كافر و ديوث يحق شرعا قتلك....لو كانت تخرج فوهة " الكلاش" من شاشة الكمبيوتر

سفر إلى الحب

إهداء إلى معجزة الحياة ...إلى معجزات الحب

في فصل الربيع ،كتب لها خلسة على ورقة شجرة التوت رسالة حب ثم راح يعانق كل أشجار الغابة يقبلها كما كان يقبل حبيبته في أحلامه الوردية .. كانت العصافير و الفراشات تنظر إليه خلسة هي الأخرى و حينما غادر الغابة و الأشجار سارعت العصافير لتقرأ ما كتب.

مر ربيع ثم ربيع ثم ربيع و آخر فآخر ....كان دفء الحب و شدو العصافير و حفحفة الفراشات يغمر كل ربيع و كانت الرسالة معلقة على شجرة التوت إلى أن بدأ الشحوب يتسلل إلى الأشجار يعلن عن قرب الخريف ..كل العصافير التي تعلمت كلمات الحب هاجرت إلى مكان بعيد و كل الفراشات التي تغذت من رحيق الحب سافرت إلى بلاد الشمس و كل الأوراق تخلت عن الأشجار تحت أسواط الخريف القاسية..

أضحت الغابة شاحبة صامتة تنقل إلى المدينة القريبة النائمة عواء ذئاب من الرياح العاتية أيقظت سعيد من إغفاءته فاستيقظت سعيدة من نومها و قررا ذاك الصباح أن يركبا القطار لزيارة العصافير والفراشات و الأشجار ...نظر سعيد في عيني سعيدة المتعبتين بثقل السنون و لاح أمامهما شريط ذكريات غير منسية كوميض برق جميل و قال لها :" آه.. لقد مر قطار الحياة مسرعا ...لا شك أنه ترك آثارا على أجسادنا .." صحيح

لقد حفر القطار منعرجات و نتوءات على وجهيهما لكنهما حرصا دوما أن يقلا معهما في سفر الحياة حبا لا ينضب معينه ...

وصلا الغابة و رافقهما شيء من الوسن كان يثقل جفونها ...سارا بين الأشجار بحثا عن العصافير و الفراشات إلى أن عانقتهما شجرة التوت و ألقت أمامهما أول رسالة حب خطها لحبيبته...أخذتها سعيدة بين يديها و قرأت ما عليها :" حبيبتي أكتب لك هذه الرسالة على ورقة شجرة التوت ..قد تصمد الورقة لخريف واحد فتتهاوى و لن تعرفي أبدا ما كتبت لك و ربما تحدث المعجزة ... حبيبتي أحبك بألوان الربيع و أزهاره كما أحبك عارية مثل شجرة توت في الخريف... أحب فيك المرأة في كل تجلياتها...المرأة في ربيع عمرها و المرأة في خريف عمرها ...فأنا أحب شجرة التوت في الربيع زاهية بأوراقها و ثمارها و أحبها في الخريف عندما تنزع منها الرياح نضارة أغصانها....أحبك أنت كما أنت... "

رسالة حب

حمل فنجانه نحو شفتيه و هو يحمل معه أمل طرد رذاذ النعاس الذي تراءى له كقطيع ذباب يستبد بحلوى ملقاة على قارعة غرفة مهجورة... تمددت شفتاه لتمتص جرعة صغيرة من قهوة سوداء ثم توالت الجرعات و كبرت و فجأة لاح على وجهه فضول الاستغراب و تساءل من داخل نفسه :" كيف يكون لهذه القهوة المستقرة في البطن هذا السحر؟ كيف تكون لها القدرة على زحزحة عقلي من كسل أعياه قطيع من رذاذ النعاس؟. "

قرر سمير أن يوقف نزيف تساؤلاته التي بدأت تبعده عن جسامة ما ينتظره ، إنه في مواجهة مباشرة مع جبروت الورقة و القلم و قد عزم على أن يبدأ اليوم بعد كل ذاك السيل من المحاولات الفاشلة ...يريد أن يكتب شيئا و لو على حساب كل فناجين قهوة الكون.

استقر القلم بين أصبعيه مرتعشا مرتجفا .. إنها أول رسالة حب يكتبها و يريدها بنفس مقاييس جمال إلهام ...الفتاة التي أحبها بدون علمها .. إلهام... سكنت عقله و قلبه منذ أن سكنت الحي مع والديها...فتاة لم تستهلك كل مراهقتها بعد.. جميلة أنيقة تلبس الجينز و الحذاء الرياضي...شغلت كل شباب الحي و أشعلت فتيل معارك ضارية بين المراهقين و البالغين .

كان سمير يسترق النظر إلى إلهام و كان يشتد عشقه كلما رآها مرتدية الجينز الأزرق الذي يفضح جزء مشوقا من تضاريس جسدها لكنه لم يجرؤ ابدا على مصارحتها بحبه ..ظل يحتفظ به لنفسه إلى أن قرر أن يفرغه في رسالة قد تصل إلى الحبيبة أو لا تصل...ما يهمه الآن هو أن يبدأ الكتابة لكنه وجد نفسه بحاجة إلى فنجان قهوة آخر ...

تتالت الجرعات الصغيرة و المتوسطة و الكبيرة و اصطدم سمير مع اشكالية صياغة مقدمة الرسالة فردد صدى جوفه :" ماذا سأكتب في المقدمة ؟ " مع توالي المحاولات الفاشلة بدت الورقة أشبه بأرض معركة عنيفة حفر عليها الجنود خنادق و حفر طلبا للاحتماء من ضربات الأعداء ..كانت التشطيبات المتكررة تزيد من جراح قلبه الدامي .

قرر بعد أن اخترق رصاص الفشل قلب ورقته أن يستبدلها بورقة جديدة مع عزم أكيد لتحقيق انتصار وشيك على الخجل و الخوف و الارتجاف ...كتب في أعلى الصفحة : "إلى حبيبتي إلهام" أحس أن كلمة :"حبيبتي" لم يحن أوانها بعد فشطب عليها و استبدلها ب: "إلى عزيزتي إلهام"

كانت أول خطوة نحو الانتصار راقه التعبير فصب في فمه جرعة كبيرة من القهوة و اقترب بكل جسده من الورقة يريد أن يحسم أمر الحرب لكن سرعان ما دب شك في أوصاله فرفع عينيه إلى الأعلى و أطلق زفيرا ساخنا اخترق صمت الفضاء و كأنه ينفث من فمه و أنفه دخان سيجارة شقراء لا تقل لذة و فتنة عن جسد إلهام الذي يظهر مفاتنه الجينز الأزرق الضيق .

عاد بعينيه العاشقتين إلى الورقة و أعاد الكتابة و كأنه يبحث عن أجمل ما يملك من جماليات الخط :

" عزيزتي إلهام

منذ أن رأيتك لم أنم ..شغلني حبك و استولى على قلبي الجريح .

عزيزتي إلهام

أشعر من خلال نظراتك أنك تبادليني نفس الشعور أليس كذلك ؟"

توقف سمير عن الكتابة و لجأ مرة أخرى إلى فنجانه و أحس أن قهوته لم تعد تمنحه الإلهام للتعبير عن حبه الكبير لإلهام و فكر في أن يجمع بين فنجان قهوة و سيجارة شقراء يسرقها من جيب أخيه الأكبر.

كان شريط حياته يمر أمام عينيه المغمضتين سريعا بألوانه الطبيعية أحيانا و بالأبيض و الأسود أحيانا أخرى ...كان يتابع مسار حياة إلهام و هي تكبر أمامه و تتزوج و تنجب ثلاثة أطفال أما هو فلم يستطع فك طلاسم مقدمة رسالة حب...

مرت ثلاثين سنة كئيبة متعبة صاحب فيها سمير فنجان قهوة و سيجارة شقراء إلى أن سقط في غيبوبة كان يستفيق منها للحظات ثم يعود إليها هاربا من آلامه و ذكرياته المنسية.. تداول على زيارته بالمصحة كل أصدقائه و أفراد عائلته ، كان يسمعهم يقولون :" لا أمل له في الحياة " "لقد بلغ السرطان في رئتيه مراحله الأخيرة" :لا أمل.. مسكين ...لم يصل بعد إلى الخمسين" " كان عليه أن يتزوج" ... في آخر يوم من حياته غالب سمير غيبوبته فتح عينيه و جال بهما بين الحاضرين و قال لأخيه :" اعطيني ورقة

و قلها ...أريد أن أكتب رسالة حب... " ثم أغلق عينيه و مال عنقه إلى اليمين فصدر من الآلة المثبتة خيوطها على صدره صوت متتابع إيذانا بتوقف قلب أحب القهوة و السجائر أكثر من أي كائن آخر.

وقف الزعيم على ضفاف شاطئ البحر وخطب في كل أولائك الذين اصطفوا وراءه يبحثون عن خلاص خلف الموج الهائج وفك القرش الضاري ..قال للجميع :"أيها المداويخ .. لا تخافوا أنا والله معكم ... لا تخافوا ... أرسلني الله إليكم بفرج رباني ... لا تخافوا .. البارحة رأيت جبريلا في المنام ..انفرجت شفتاه على ابتسامة من نور ملأ الكون كله .. أعطاني هذه العصا وقال لي إنها عصا الله كانت مع موسى وهي لك أنت أيها المؤمن الصادق... أمرني جبريل بأن أضرب بها الأرض لينشق البحر إلى نصفين ... لا تخافوا معي... ستكونون إن شاء الله من الناجين"

ضج الفضاء الواسع بالتهليل والتكبير وهوى الزعيم على الشاطئ بالعصا مرة ومرة ومرة وأخرى فأخرى ثم أخرى .... لم ينشق البحر إلى نصفين بل انشقت الأرض على جيش عرمرم من قوات الأمن والمخزن فسالت الدماء على الشاطئ خضبت الرمال وامتزجت بالمياه .... الزعيم ؟؟ آه الزعيم !!! ركب سيارة سباها منذ أن كان هناك .. هناك .. بجوار التماسيح والعفاريت.

و هو بين أحضانها رفع عينيه نحو عينيها فبرق الحب رغبة و كلاما غمر الجسدين معا ، قال لها : " حبيبتي أنا أرى بحرا أزرقا في عينيك يناديني إلى الأعمق ....حبيبتي أنا أرى سماء في عينيك تدعوني إلى صلوات صوفية على محراب الحب ....حبيبتي ...ماذا ترين أنت في عيني ؟ "

أحست شهرزاد بالارتياح و غمرت الفرحة شفتيها فنقلت جزء منها إلى شفتيه وتمتمت في أذنه اليمنى :" ماذا أرى في عينيك ؟ ماذا أرى في عينيك ؟ أرى أشياء كثيرة يا حبيبي.. " ثم همست :"... أرى في عينيك وفاء الكلب و صبر الحمار و تحمل البغل .. " على غير موعد استفاق من غيبوبته المخدرة ، ابتعد عن حضنها ...تفحص وجهها و قال لها : " ألا ترين في عيني إلا كلبا و حمارا و بغلا؟...ألا يوجد داخلهما بحر أزرق ؟....ألا يوجد داخلهما إنسان ...أو ...حيوان آخر غير الكلب و الحمار و البغل ؟؟.."

جالت بعينيها في فضاء الغرفة ذات الضوء الأحمر الخافت ثم استعادت زوجها برفق إلى حضنها الدافئ و همست هذه المرة في أذنه اليسرى :" حبيبي أخاف أن أرى في عينيك أسدا ...أخاف أن تنافسني فيك كل لبؤات المدينة....أريدك فقط كلبا و حمارا و بغلا.. أحبك كما أراك أنا.. "

عباد الشمس

قرر سيف الله أن يصبح سيف الله المسلول فصنع لنفسه سيفا خشبيا و خرج إلى حقل عباد الشمس على مشارف قريته الهادئة ...

وسط الحقل خطب في الأزهار :" أيتها المخلوقات الضالة ...جئتك مبشرا ومنذرا....جئتك بخيارين لا ثالث لهما إما الإسلام أو القتال....أيتها المخلوقات الضالة لا معبود إلا الله ، الشمس نفسها تسجد لله في كل غروب...أيتها المخلوقات الضالة اسلمي تسلمي"

أخرج سيفه الخشبي من تحت حزامه رفعه متحديا الشمس و صاح :" الله أكبر الله أكبر!!"

لم تعبأ به الأزهار مالت نحو الفضاء الرحب تبتسم للنور و الجمال...

سيف الله ؟!...آه سيف الله المسلول ..لقد مات بضربة شمس...

البحر لماذا يبكي ؟

إلى كل أشجار شاطئ السعيدية ....كل الأشجار التي اغتالها جبروت سماسرة العقار

يحكى في حديث الأزمان أنه كانت قرب شاطئ الجوهرة الزرقاء غابة كثيفة الظلال تداعب اللقالق و طيور الحسون ، تفتح ذراعيها للبسطاء من سكان الجوار ، تمسح عن جباههم عرق أيام متعبة و تجعل بردا و سلاما حر الشمس الملتهبة ... كانت الغابة تورق في قلوب البسطاء فرحا و كان الأطفال يختفون وراء حبات الرمل الذهبية إلى أن تخونهم ضحكاتهم البريئة.. مرت السنين و الغابة و البحر يمنحان القبل لكل بسطاء مدن الجوار .. لكن ...و في يوم شديد الحرارة والظلام حط الغرباء بالجوهرة الزرقاء سرقوا الشاطئ و ابتلعوا الأشجار و جففوا مياه النهر... بكت اللقالق وطيور الحسون و لم تجف من حينها العيون... لم تعد ملوحة البحر تنعش ابتسامة البسطاء و لم تعد الرمال تحضن ضحكات الأطفال .

بعد أن ابتلعوا كل الأشجار خاطب الغرباء البسطاء فقالوا لهم :" كل المستقبل أمام الجوهرة الزرقاء ..سينفتح شاطئكم على العالم و سنوفر الشغل لكل الشباب " بقلب واجف اشرأبت الأعناق إلى الأفق .. انتظروا الرخاء لعله يدق الأبواب لكنهم تأسفوا عندما غمرت بيوتهم سيول الواد الحار .. تحول الأفق إلى غابات من الانتظار والحنين والبكاء بينما كان سماسرة العقار يرقصون على أضواء الانتصار و يشعلون فتيل الغلاء

البحر ؟ ! البحر ...وحده لا زال يصارع من أجل أن يسترجع الغابة و البسطاء من مدن الجوار و اللقالق و طيور الحسون...

الحلم الوردي

ذات صباح و على غير العادة قال لأمه :"ماما .. ما لون الحلم الوردي ؟ " نظرت إليه و قد شقت دمعة دافئة طريقها على خدها المتبل بكل ألوان الحب أجابته:" يا حبيبي ...الحلم الوردي يسرق لونه من ابتسامتك القوس قزحية " أشرقت شفتاه فأضفت على السماء زرقة السوسن... ضحكت عينا أمه فرحا مبتلا بشيء من الحزن عن ابنها الضرير.

أخاف أن أفقدك

بشفتين مرتجفتين قالت لأبيها :" أنا لا أحب فصل الربيع ! ..لا أحبه!...ارجوك بابا ابعده عنا ...أرجوك..." آلمه خوفها ، ضمها الى صدره و همس قرب أذنها :"لماذا ياصغيرتي...أليس الربيع فصل الجمال و الأزهار؟ ألا تحبين قوس قزح ؟" بعينين دامعتين نظرت إليه و قالت :"بلى ...ولكن ربيعنا لا يزهر إلا قنابل و صواريخ و دمار ...أخاف أن أفقدك في فصل الربيع"

الوقت بدل الضائع

و نحن بالمقهى نحتل الرصيف العمومي و نجبر المارة على السير جنبا إلى جنب مع السيارات و العربات المجرورة و مقاتلات الجيل الجديد قلت لهم :"أنا لن أشاهد مقابلة الوداد و الأهلي غدا !!" نظروا إلي شزرا و عيونهم تقذف حمما من العنف المخيف قالوا لي بصوت تردد بينهم تردد الصدى في فجاج متوحشة :" لماذا ؟؟ ألا تحب الوطن !؟ " قبل أن أدفع الكرسي إلى الوراء معلنا عن مغادرتي المكان المشبوه قلت لهم :" بلى أحب الوطن ...أحب وطن آخر يمتد في الزمن...هو أوسع من ملعب و هتافات وأهداف و ساعة و نصف من اللعب...باختصار أنا أعشق كرة القدم حينما لا يجبر الشعب على لعب الوقت بدل الضائع فقط "

فهرست

الماتادور 5
التحقيق 7
الحاج الكلب والآخرون 12
البئر الملعونة 14
الخطبة الثالثة 16
الراتب و الشقراء 19
الطابور 21
الفتنة لا تنام قبيل العيد 23
نهاية شجار 26
بسطيلة بالحوت 28
تحرش جنسي 30
تقاعد وماء ساخن 32
سعيد بن سعد السعداتو 36
سيرة موظف 39
شاي وخبز أسود 41
صلاة استخارة 43
عاشوراء 45
عين المكان 46
مخزن سيدنا 48
معاش المؤخرة المناضلة 51
نجمة الضابط 54
نور من تحت السجادة 57
يا لها من جمعة 60
التوحيمة 64
الوالدة الصامتة 67
الرجل الخطير 69
بركاتك الشيخ سيدي فالتان 71
حسن السيرة 73
زمرة اليساريين 75
شجرة التوت 77
أنا تغيرت 79
عشاء الوداع الأخير 81
غيفارا المغربي 83
من يوميات زيرو ميكا 86
الأستاذ أديب قرنفل 89
سفر إلى الحب 91
رسالة حب 93
عصا الله 97
أحبك كما أراك أنا 98
عباد الشمس 99
البحر لماذا يبكي 100
الحلم الوردي 102
أخاف أن أفقدق 103
الوقت بدل الضائع 104